أزمة الرأسمالية العالمية والصراع الطبقي البكتيريولوجي
وجهة نظر ماركسية – لينينية

وليد الزرقطوني

القسم الأول: التاريخ، الكوسموغونيا، الكوسمولوجيا والإسكاتولوجيا

القسم الثاني: الاقتصاد السياسي

القسم الثالث: الفلسفة

ملحق:
الأوبئة في تاريخ المغرب :
محاولة تركيبية مختصرة

منشورات موقع 30 غشت

أكتوبر 2021

أزمة الرأسمالية العالمية والصراع الطبقي البكتيريولوجي

ـ وجهة نظر ماركسية – لينينية ـ

وليد الزرقطوني

منشورات موقع 30 غشت

المحاور

القسم الأول 9

التاريخ، الكوسموغونيا، الكوسمولوجيا و الإسكاتولوجيا 9

تقديم 9

I - أزمة كوفيد19 والأزمة العامة الثانية للرأسمالية 13

II - من الطاعون إلى كوفيد 19: سبع معطيات حول تاريخ الأوبئة 19

1 ـ المعطى الأول: هل الأوبئة قديمة قدم الوجود الإنساني؟ 19

2 ـ المعطى الثاني: الطاعون كأشهر الأوبئة (الطاعون الكبير) 19

3 ـ المعطى الثالث: حول ما سمي ب "جدار الطاعون" 21

4 ـ المعطى الرابع: الصدمة الميكروبية ما بعد الكولومبية 21

5 ـ المعطى الخامس: أوروبا القرن 19 والكوليرا 22

6 ـ المعطى السادس: إنفلوانزا 1918 الإسبانية 22

7 ـ المعطى السابع: بصدد اكتشاف اللقاح 23

III - من ذاكرة التاريخ : ثلاث أوبئة ساهمت في تغيير العالم 23
1 ـ طاعون أثينا: (يقول العلماء اليوم أنه التيفوئيد وليس طاعونا) 23
2 ـ طاعون جوستينيان وأسطورة انتصار العرب على الروم والفرس 24
3 ـ الطاعون الكبير أو "الموت الأسود" 26
VI ـ الكوسموغونيا، الكوسمولوجيا، الإسكاتولوجيا ونهاية العالم 28
(الفزع الذي لا ينتهي)
1 ـ مفهوم الزمن الدائري، أو الزمن كعجلة أو سهم 28
2 ـ الزمن الخطي 29
- التنظيف بمياه كثيرة: أسطورة الطوفان 29
ـ القيامة من أجل الطمأنة 30
3 ـ الخوف من الرقم الدائري 31
V ـ العلم والمقاربة العلمية للتاريخ ونهايته 33
1 ـ قدم العالم وحركية التاريخ البشري والطبيعي 33

القسم الثاني 37

الاقتصاد السياسي 37

I - العولمة الرأسمالية وتكاثر الأوبئة 37

II - الرأسمالية نمط إنتاج عالمي 40

1 ـ المتروبول كقاعدة لنمط الإنتاج الرأسمالي 43

2 ـ كوفيد 19 ودلالته 46

III - أزمة الرأسمالية وتكثيف الإنتاجية: دور الحيوانات في مواجهة الرأسمالية للانخفاض الميولي لمعدل الربح 47

1 ـ فترة الاستقرار النسبي للرأسمالية أو ما يسمى ب "الثلاثون سنة المجيدة" (1945 – 1975) 47

2 ـ ردود فعل بعض قوى ومجموعات اليسار عبر العالم تجاه كوفيد 56

IV -كورونا فيروس ضد الرأسمالية 58

V - إيبولا: الاحتباس الحراري، اجتثاث الغابات وفشل السوق 60

VI ـ 1N1H : انبثاق جائحة فيروسية في المعامل الرأسمالية العملاقة الخاصة بالخنازير 62

VII - زيكا، أو عولمة البعوض sedea وغياب المصالح العمومية 63

VII - المسألة الصحية في الدول التابعة بين التقويم الهيكلي وإحسانية الرأسمالية 64
IX -من أوبئة الرأسمالية بشكل عام إلى أوبئة ما يسمى بالنيوليبيرالية 67
القسم الثالث 72
الفلسفة 72
I - المادية البورجوازية وميزتها الأساسية 72
II ـ حول علوم الطبيعة والتفاؤل كهوية: وجهة نظر شيوعية 75
III ـ الإنسان في المنظور الشيوعي 78
VI - في الوحدة الأساسية بين الإنسان والطبيعة 80
1 ـ جدلية الطبيعة 82
2 ـ الكوسمولوجيا البورجوازية 84
3 ـ التصور الميتافيزيقي المثالي للطبيعة 85
4 ـ المحيط الحيوي أساس كل حياة إنسانية 87
V – النضال الإيديولوجي من أجل الوحدة الأساسية للإنسان والطبيعة 92

1 ـ ردود الفعل العلمية المزيفة تجاه الأزمة الإيكولوجية 92
2 ـ تنامي وعي الجماهير بالمسألة الإيكولوجية ومعيقات تطوره 93
أ – وجهة النظر الدينية 93
ب – وجهة النظر الوضعية 94
3 ـ الأنتروبيا والقدرية 96
4 ـ حول بعض التأويلات الدينية لوحدة الإنسان والطبيعة 98
5 ـ عيوب الحركة الإيكولوجية 100
IV ـ المعالجة المادية الجدلية لوحدة الإنسان والطبيعة 101
1 ـ النقد الأساسي ل "برنامج غوتا" من طرف كارل ماركس وفردريك انجلز 102
2 – صراعات حول "جدلية الطبيعة" 107
3 – في معالجة مسألة البيئة من طرف أحزاب الحركة الشيوعية القديمة 109
لائحة مختصرة للمراجع المعتمدة 112
ملحق: الأوبئة في تاريخ المغرب: محاولة تركيبية مختصرة 118

I- المغاربة والأوبئة 121
1 ـ وباء الطاعون 121
2 ـ المغرب في زمن الكوليرا (بوكليب) 125
3 ـ حمى المستنقعات: الملاريا (حمى الدلاح أو الهندية حسب المغاربة) 129
II - استبداد السلاطين وظلامية الفقهاء واحتكار التجار 130
III - الوباء ومعتقدات المغاربة 132

القسم الأول

التاريخ، الكوسموغونيا[1]، الكوسمولوجيا[2] و الإسكاتولوجيا[3]

تنبيه: هذه الدراسة التي يقدمها الموقع هي ثمرة قراءات وبحث وتحليل استفاد من ظروف الحجر الصحي الشامل، الذي فرض على المغاربة لمدة ثلاثة أشهر، ابتداء من شهر مارس 2020، وقد كان النص جاهزا منذ ذلك الوقت، غير أن ظروفا قاهرة قد حالت دون نشره في إبانه.

تقديم:

على سياق ما قاله "البيان الشيوعي" حول شبح الشيوعية، الذي كان ينتاب أوروبا آنذاك، يمكن القول إن كوفيد 19 (كورونا) شبح يخيم على العالم منذ أن أعلن عن ظهوره ثم انتشاره. ضد هذا الشبح اتحدت، في فوبيا رهيبة، قوى أوروبا القديمة كلها، البابا، الرئيس ماكرون، المستشارة الألمانية ميركل والوزراء الأولون في الحكومات الأوروبية، و رئيس روسيا الرأسمالية وزعيم الصين الرأسمالية، وزعيم الامبراطورية الأمريكية، ولم ينس كل فريق من هذه الفرق أن يتهم الآخر بكونه مصدر

1 .كوسموغونيا: كلمة يونانية قديمة ارتبطت بالحديث عن نشوء العالم والكون، وتغذت بالأساطير البدائية حول ما يسمى خلق الكون والعالم. ومع تطور العلوم واندحار الفكر الخرافي أصبحت علما لنشوء الكون والعالم اعتمادا على الاكتشافات والنظريات العلمية.

2 .كوسمولوجيا: هي العلم الذي يدرس القوانين الكبرى التي تحكم الكون.

3 .إسكاتولوجيا: المذهب، أو المذاهب التي تعنى بنهاية العالم ومصير الإنسان، وقد ارتبطت ارتباطا وثيقا بالمعتقدات الدينية والخرافية، التي تتحدث عن نهاية العالم وعن يوم الحساب وعن البعث وعن الجنة والنار كمصير للإنسان في عالم آخر ميتافيزيقي.

الفيروس القاتل، ولأن السياسة كما قال لينين تكثيف للاقتصاد، تحركت المطامع الرأسمالية للشركات الكبرى المنتجة للأدوية و اللقاحات في صراع محموم من أجل إنتاج لقاح مضاد للفيروس، تستطيع عن طريقه انتزاع أكبر قسط من السوق العالمية، عبر استغلال الأزمة الصحية العالمية على ظهر الشعوب والعمال والكادحين، من أجل تحقيق أعلى الأرباح الاحتكارية، عبر الزيادة في فوائد القيمة ومعدلات النهب، من خلال سرقة مدخرات شعوب العالم.

لقد ساهمت وسائل التواصل الاجتماعي في اندلاع فوبيا كوفيد 19، وتدخلت في النقاش أطراف متعددة ساذجة وعفوية أحيانا، وذات إيديولوجيات ورؤى سياسية ودينية واقتصادية أحيانا أخرى، بل حتى الفلسفة وجدت مكانا لها في هذا النقاش الدائر حول معنى ودلالة كوفيد 19، ونتائجه على البنى الاقتصادية والاجتماعية خاصة، وأصبح الحديث يدور حول ما يسمى بالنظام العالمي الجديد، من أجل إنقاذ النظام الرأسمالي الآيل إلى السقوط، خاصة في مراكزه القديمة (أوروبا والولايات المتحدة).

إن ما تحدى الشعور و اللاشعور و العقل الإنساني، كون فيروس كوفيد 19، امتلك هذه القوة الجبارة غير المرئية في خلخلة الحياة الاجتماعية و الاقتصادية و السياسية و الدينية، فكيف لا و قد توقفت أنشطة الأماكن " المقدسة" في مكة و في ساحة الفاتيكان، و منع الحجاج من دخولها، بل أفرغت الجوامع و الكنائس و المعابد البوذية و الهندوسية و غيرها من متعبديها و ناسكيها، و لم تنفع أدعية المؤمنين و المؤمنات من أجل أن يتوقف الوباء، و قد كان ذلك صفعة مدوية لكل المعتقدات، ضدا على الأفكار الرائجة حول الحصانة القدسية لتلك الأماكن، فسقطت أوراق التوت معرية عورات الفقهاء و الشيوخ و

رجال الدين بصفة عامة و الدجالين و المشعوذين ... و حقق كوفيد 19 انتصارا باهرا على "الله" في عقر أماكنه المقدسة، حيث لم تنفع التعاويذ و لا غيرها ...

و تعرض الاقتصاد الرأسمالي العالمي لهزة كبيرة و زلزال عظيم، في سياق أزمة غير مسبوقة دائمة و متنامية، و تراجعت الأنشطة التجارية و الصناعية و الفلاحية و غيرها إلى أدنى مستوياتها، و خيم شبح المجاعة و الخصاص على العالم، و ظهرت الدول الكبرى عاجزة و ضعيفة في مواجهة الأزمة الصحية الجديدة الناتجة عن الجائحة العالمية، فانفضحت السياسات "النيوليبرالية" في مجال الصحة والخدمات الصحية، فاكتشف العالم بالجرم المشهود النتائج الكارثية لتلك السياسات، حيث قلة الدواء و قلة المستشفيات و الأطر الصحية، و ظهرت عورات الدول الكبرى عندما عادت المالتوسية الاجتماعية، بل و الداروينية الاجتماعية، وقدم الشيوخ والعجائز قربانا في معركة مواجهة كورونا، حيث ينقلون إلى مقابر جماعية، أو عبر شاحنات عسكرية في توابيت معزولة إلى مثواهم الأخير . انعدم الدواء وشح الأوكسجين ومات الناس من مختلف الأعمار نتيجة السياسات الصحية المعادية للإنسان، هكذا، وكمتلازمة، يدمر الإنسان بعد تدمير الطبيعة، خدمة للربح الأقصى محرك الاقتصاد الرأسمالي العالمي، وإنه لملفت للنظر أن تظهر للعيان عيوب النظام الرأسمالي في مراكزه، لما بدأت بلدانه تتوصل بمساعدات من بعض دول "الجنوب" في شكل كمامات وأدوية وأطر طبية ...

ومن نتائج كوفيد 19، أن انفضح ما يسمى بالاتحادات الرأسمالية وعلى رأسها الاتحاد الأوروبي، عندما تخلى عن كل دعم لدول أوروبا الجنوبية المنضوية في هذا الاتحاد، التي تركت لمصيرها، حيث تزايدت أعداد الإصابات والوفيات، وتراكمت

الجثث في أقبية المستشفيات، مما فجر غضب الجماهير، بل حتى بعض المسؤولين على رأسهم رؤساء دول، ورؤساء حكومات، اللذين هددوا بالانسحاب من الاتحاد، بل بلغ الأمر حد تمزيق علم الاتحاد الأوروبي في أكثر من حالة.

وعرفت البلدان التابعة أزمات حادة عمقت من طبيعة الأزمات البنيوية التي تنخر الهياكل الاقتصادية الهشة أصلا في هذه البلدان، نتيجة التبعية و اتباع سياسات البنك الدولي و صندوق النقد الدولي ذراعا النظام الرأسمالي الامبريالي العالمي، وكذلك سيادة طبقات اجتماعية كمبرادورية هجينة و عميلة، و استفحلت الأوضاع الصحية في ظل غياب المستشفيات و قلة، بل ندرة الأطر الصحية و الأدوية و اختفاءها من السوق، و التخلي عن مجانية الصحة، و العشوائية و الارتجالية و غياب أية استراتيجية صحية لمواجهة الجائحة، مما ساهم، أمام تراجع الاقتصاد، في تأزيم الأوضاع الاجتماعية، حيث أصبحت المجاعة قدرا يوميا يعيشه المواطن في هذه البلدان.

وبعد فترة قصيرة من الذهول والارتباك أمام وصول هذا الضيف غير المرغوب فيه، وبعد لجوء الأنظمة في مراكز الرأسمالية العالمية وأطرافها إلى سن سياسات دكتاتورية وقمعية معادية للحقوق الديموقراطية والإنسانية، وانفضاح السياسات الصحية الطبقية، عرفت هذه البلدان انفجارا في الأوضاع أدى إلى خروج الجماهير في مسيرات ومظاهرات ضد تلك السياسات، التي سنت تحت شعار "الحجر الصحي" لمحاصرة الوباء، وبهذا المعنى يكون الوباء قد ساهم في تأجيج الصراعات الطبقية في هذه البلدان.

I - أزمة كوفيد19 والأزمة العامة الثانية للرأسمالية:

إن أزمة كوفيد 19، التي تحولت إلى جائحة عالمية توافق دخول الرأسمالية العالمية في فترة جديدة من تطورها، تعلن عن تراجع نمط الإنتاج الرأسمالي، الذي أصبح يعيش أزمة متواصلة، تعكس إلى حد كبير تعمق تناقضه الأساسي، الذي يعمق بدوره أحد تناقضات الرأسمالية القاتلة، التي أصبحت صارخة، ونعني بذلك التناقض بين المدن والبوادي، الذي حول حياة الناس، في ظل الرأسمالية إلى جحيم لا يطاق.

وأصبحت الطبيعة بدورها تعرف اختلالا كبيرا، نتيجة الهجوم التدميري عليها من طرف نمط الإنتاج الرأسمالي، الباحث باستمرار عن كل الطرق والوسائل، التي تضمن استمراره. ومع ذيوع أزمة كوفيد 19، دخل العالم في لحظة جديدة، تتميز بكون نمط الإنتاج الرأسمالي فيها قد أصبح يواجه أزمة مزدوجة غير قابلة للتجاوز، حيث يقابل فائض إنتاج الرأسمال، فائض إنتاج البضائع والعكس صحيح.

خلافا للكتابات السطحية، الصحافية و غيرها، ليست الأزمة الصحية هي التي ولدت، بالمعنى الضيق الأزمة العامة الثانية لنمط الإنتاج الرأسمالي، ذلك أن الأزمة لا يمكنها أن تتولد إلا ضمن التناقضات الداخلية للرأسمالية، و لذلك، يعتبر الماركسيون – اللينينيون كوفيد 19، كمرض يحمله فيروس، نتاج تحول، سببه تطور التناقض بين المدن و البوادي في سياق تطور نمط الإنتاج الرأسمالي، الباحث باستمرار عن الربح الأقصى، كمحرك لتطوره، مما يجعلنا نؤكد أن الإنتاج الرأسمالي هو الذي يولد الأزمات الصحية باستمرار، و نحن هنا أمام وضع وصلت به الرأسمالية إلى حدوده القصوى، أدى بها إلى الدخول

في نزاع و تناقض مع الحياة نفسها، فاستعمالها الأقصى للعمل الإنساني و للموارد الطبيعية دخل في تناقض مع الواقع المادي الطبيعي نفسه.

بالعودة إلى الأزمة العامة الأولى لنمط الإنتاج الرأسمالي، نجد أن ثورة أكتوبر العظيمة، التي تولدت من داخل نمط الإنتاج الرأسمالي نفسه في إحدى حلقاته الضعيفة، ساهمت في انفجار الأزمة العامة الأولى للرأسمالية، والتي تميزت بتعمق كبير للتناقض بين العمل اليدوي والعمل الفكري (انظر في هذا الصدد "مشكل المثقفين" لكلارا زتكين) في حين تتميز الأزمة الثانية بتعمق التناقض بين البادية والمدينة، وإذا أخذنا بعين الاعتبار سيرورة تطور الرأسمالية عالميا، فبالإمكان القول أن الأزمة الثانية هي امتداد للأزمة الأولى.

يعتقد الكثيرون (الاشتراكيون الديموقراطيون، الإصلاحيون، وأبواق الدعاية الامبريالية، وبعض السذج من المثقفين السطحيين) أن نمط الإنتاج الرأسمالي يظهر إمكانية تجاوز أزماته، والحقيقة هي العكس، ومن يقول بذلك يسقط في خطأين، وهما:

1- الاعتقاد الأول، أن تطور النظام الرأسمال هو لا نهائي.

2- الاعتقاد الثاني، أن تطور النظام الرأسمالي قادر على التفكير ...

إن الوقائع المادية على الأرض تثبت كلها عكس ذلك، فأزمة نمط الإنتاج الرأسمالي تتعمق، وتتخبط، بقدر ما هو مسيطر ومهيمن.

هناك عنصران يساهمان في تحديد ما يطلق عليه بالأزمة العامة لنمط الإنتاج الرأسمالي، وهما، وجود فائض إنتاج كبير وضخم من الرساميل، وفي نفس الوقت فائض إنتاج ضخم من البضائع، ولا مجال هنا للحديث عن العلاقة الجدلية بين الطرفين.

عند الحديث عن مفهوم الأزمة، فالتيارات الانتهازية اليمينية، تؤكد في تحاليلها فقط على فائض إنتاج الرأسمال منددة بما تسميه بالأوليغارشية، وهو التحليل الذي يقود أصحابه إلى رفع شعار "مناهضة النيوليبرالية" وليس مناهضة الرأسمالية، بينما يركز بعض "اليسراويين" على فائض إنتاج البضائع، فيطالبون بتوزيع الخيرات، كما رأينا ذلك في العديد من الحركات التي اجتاحت العالم العربي.

ومن وجهة نظر الفكر الماركسي، كما حدده ماركس، فهناك جمع، بشكل جدلي بين فائض الرأسمال وفائض البضائع، ومن وجهة نظر هاته، فنحن أمام وضع دخل فيه نمط الإنتاج الرأسمالي في فترة من التطور، أصبحت فيه الاحتكارات أكثر قوة من السابق، فقامت بتجفيف دورات تنمية الرأسمال، وذلك بتعويضها للاستغلال الرأسمالي المنتج باستغلال أكثر استبدادا من طبيعة طفيلية.

لقد مس الحجر الصحي مجموعة من الأنشطة الاقتصادية، وتوقف الكثير منها، بل هناك من أفلس.

فما هي الأنشطة التي توقفت؟ وما هي تلك التي استمرت رغم العوائق؟

إن العمال اليدويين قد تم الضغط عليهم لكي تستمر أنشطتهم، بينما ما يمكن تسميته بالعمل الفكري قد ألقي به فيما يسمى بالعمل عن بعد، لكن هذا لم يمنع من حصول تراجع عميق للنشاط الاقتصادي بشكل عام، و قد تفاجئ الرأسماليون عندما

أدركوا جزئيا، أن نمط الإنتاج الرأسمالي عرف توقفا لدوراته الإنتاجية، و هذا بالنسبة لهم لا يطابق الطبيعة المتواصلة و الموسعة باستمرار للدورة الإنتاجية، و من هنا بالإمكان إدراك، أن الأزمة العامة لنمط الإنتاج الرأسمالي الآن ، لم تعبر عن نفسها بشكل رئيسي، كجمود إنتاجي، و جمود في الاستهلاك، بل كتمظهر رئيسي، **عبر انكسار في انطلاقتها**، لأن طبيعتها هي العيش من انطلاق للرأسمال إلى انطلاق آخر، ومن هنا، جاء فائض إنتاج الرساميل، ذلك أنه مع الحجر الصحي، و حالة البلوكاج، أصبح الرأسمال لا يعرف كيف يستثمر نفسه، في وقت كان فيه يتموقع بشكل مباشر، من انطلاق إلى آخر، و الحصيلة، وجود رأسمال ضخم بدون بوصلة، معاق في تطوره، لا يدري أين يتوجه، و الحال أنه، جدليا، كان هذا الرأسمال فيما سبق، يأتي من تحقيق الدورات السابقة، لكن الحجر أوقف توزيع البضائع، فوقع فيها تراكم كبير التي لم يتم بيعها، و من هنا الحديث عن فائض الإنتاج في البضائع، وحصل أن عددا كبيرا من البضائع تم فقدانها لأن مدة صلاحيتها قد انتهت، والحصيلة، أننا دخلنا لحظة تاريخية، حيث أن نمط الإنتاج الرأسمالي لم يكن بإمكانه أن يتحقق باستعمال الفضاءات الممكنة. هنا يمكن الحديث عن مشكل تنمية الرأسمال كصدى مباشر لتحطيم كل ما هو طبيعي على الصعيد العالمي لفرض تحقيق وتنمية الرأسمال القائم مهما كان الثمن.

إن اجتثاث الغابات لا يتم لأن أناسا فقدوا فقط أخلاقهم، بل لأن هناك رأسمال موجود من أجل هذا، ويهدف إلى تنمية ذاته على حساب الإنسان والطبيعة، وقد وصلنا الآن إلى وضع تظهر فيه الطبيعة كحد تاريخي لنمط الإنتاج الرأسمالي، تلك الطبيعة التي يعمل نمط الإنتاج الرأسمالي على إنكارها باستمرار، ضاربا عرض الحائط ب "كرامة الواقع"، ومن هنا يمكن ملاحظة بروز العديد من الظواهر مثل:

وهو ما يعني الإنجاب بمساعدة طبية، و GPA (تأجير الأرحام) PMA

و ترانسهومانيزم[4] (دمج الإنسان و الآلة) و التحول الجيني، و رفض العائلة التقليدية (رجل و امرأة) وإنتاج أنواع جديدة من المخدرات ...

عندما لا ندرك أهمية التناقض الذي يتطور في سياق الرأسمالية، ونعني هنا التناقض بين المدن والبوادي، فإننا لا نرى ولا نفهم أن الأزمة العامة لنمط الإنتاج الرأسمالي، ليست نتيجة سبب بسيط، بل ظاهرة جدلية، فإذا أدركنا الحركة التي جعلت نمط الإنتاج الرأسمالي يصل إلى حده، فإننا نتوجه حتما نحو مسألة الطبيعة والحيوان. فقد حاول الإنتاج الرأسمالي تحويل عجزه عن التنمية، من خلال محاولة تغيير جدري للواقع الطبيعي، وليس الأمر هنا مجرد تدمير فقط، بل تدخل في الطبيعة وتغييرها، فقد وصلت الرأسمالية إلى قمة جنونها بضربها لمفهوم "كرامة الواقع"، فهي اليوم تريد تغييره، لأنه أصبح حدا لاستمرارها الذي تريده أن يكون لانهائيا.

4 .ترانسهومانيزم: تيار فكري انطلق من جامعات كاليفورنيا، يعتمد على تقدم علوم الإعلام والنانو تكنولوجيا وغيرها في محاولة لتصور إنسان آخر، إنسانا هجينا مع الآلة، وتتم إطالة عمره وقدراته، ويطلق. H+ عليه

إن هذا التيار يسعى إلى خلق نوع بشري جديد يطلق عليه "ما بعد الإنسان"، بمعنى آخر، عبارة عن جهاز سيبرنيتيكي معدل جينيا (وراثيا) يخلف النوع البشري الحالي. إن أفكار هذا التيار، وإن بدت في انطلاقها كنوع من الخيال العلمي، المحشو بالآمال المستقبلية للإنسان، فسرعان ما تحولت إلى مشاريع عملية، تستثمر فيها الرأسمالية بهدف تحويل الإنسان نفسه جينيا، ليصبح إنسانا آلة، يسهل التحكم فيه وبرمجته لصالح خدمة الرأسمالية كبعد واحد و وحيد للإنسانية، ومن أجل وضع حد للتاريخ.

إن التحويل الفيزيولوجي للكائن البشري، الذي نعيش اليوم اللحظات الأولى لانطلاق تحقيقه، لم يعد مجرد فكرة من أفكار أفلام الخيال العلمي، بل نرى أن الشركات الكبرى وملحقاتها العلمية، وعلمائها المرتزقة، يعملون ليل نهار، لتحقيق السبق في هذا المجال، من أجل إنسان جديد، الإنسان الآلة، وهو ما يطلق عليه اليوم في مجال ترانسهومانيزم "ما بعد الإنسان". إن هذا التدمير المبرمج للإنسان يرافقه من جهة أخرى، استعمال منهجي للحيوانات في الصناعة، وذلك بهدف فتح أسواق جديدة وتوسيع إمكانية تنمية الرأسمال، والحد من تأثير قانون الانخفاض الميولي لمعدل الربح.

إن هذه التحولات ترافقها عناصر جديدة تمس الثقافة والحضارة، فقد طورت البورجوازية مفهوم ما بعد الحداثة، لتضرب، من جهة، القيم المحافظة، التي ظلت تدافع عنها، ومن جهة أخرى تدمير كل قيم العقل والفكر والإيمان بالإنسان وفكرة التقدم، التي أتت بها عصور الأنوار، فصارت، تحت غطاء "النسبوية" تبرر الأفكار الظلامية وفقدان الثقة في الإنسان.

لقد تراجعت البورجوازية عن كل القيم الإنسانية ودخلت مرحلة السقوط والانهيار، لذلك فليس غريبا أن نجد "النسبوية" وفلسفة ما بعد الحداثة قد أصبحتا مفهوما للعالم.

إن البروليتاريا والاشتراكية الثورية، هما الوريث الشرعي لقيم العقل والديموقراطية والإنسان، فمخطئ من يعتقد بإمكانية عودة البورجوازية إلى الوراء، لأن التاريخ لا يسير القهقرى، ولأن البورجوازية لا تستطيع تجديد جلدها، و واهم من يعتقد أنه بتبنيه للقيم البورجوازية القديمة، سيعيد إحياءها في تربة أخرى، فلا سبيل للاختيار، فإما البربرية و إما الاشتراكية بتعبير الشهيدة روزا لوكسمبورغ.

II - من الطاعون إلى كوفيد 19: سبع معطيات حول تاريخ الأوبئة:

1 ـ المعطى الأول: هل الأوبئة قديمة قدم الوجود الإنساني؟

باستقراء الحقائق التاريخية والاكتشافات العلمية، وبالعودة إلى عهود ما قبل التاريخ، وخاصة عندما عرف العالم تحولات تاريخية كبرى (12 ألف سنة قبل الميلاد بالنسبة للشرق الأوسط، و10 آلاف سنة بالنسبة للصين) تمثلت في ظهور الزراعة وتربية الماشية، فقبل ذلك، وخلال مئات آلاف السنين السابقة، كان الناس يعيشون من الصيد والقطف، ويعيشون في جماعات صغيرة تتحرك جغرافيا باستمرار في فضاءات كبيرة، حيث لا يلتقون فيما بينهم إلا ناذرا، مما كان يجعل من المستحيل انتقال الأمراض المعدية.

وقد ساهم ظهور الزراعة وتربية الماشية خلال الثورة النيوليتيكية في تغيير المعطيات، بسبب أنه، من الآن فصاعدا، بدأ الناس يتجمعون في جماعات مدمجة ومستقرة أكثر فأكثر في قرى ومدن، حيث أصبح من الممكن أن تنتشر العدوى بين الناس، ولأنهم أصبحوا يعيشون في احتكاك يومي مع الحيوانات، هاته الكائنات الحية الناقلة لفيروسات متغيرة باستمرار، ستصبح مسؤولة عن أكبر الأمراض الجديدة، خاصة مع تطور احتكاك الناس فيما بينهم.

2 ـ المعطى الثاني: الطاعون كأشهر الأوبئة (الطاعون الكبير):

عرفت الحضارات القديمة الفرعونية في مصر وبلاد الرافدين وفي الامبراطورية الرومانية وفي اليونان انتشارا متكررا لوباء الطاعون، لكن أكبر طاعون عرفه التاريخ هو ذلك الذي انتشر في أواسط القرن14، حيث أطلق عليه "الطاعون الأسود"، بل

سماه الانجليز والألمان ب "الموت الأسود". ففي سنة 1346، كان الماغول من حفنة الذهب (إحدى الامبراطوريات المنبثقة من غزوات جانكيزخان) قد حاصروا مدينة كافا، وهي ميناء في القرم، كان الجنويون (نسبة إلى جنوة) قد أقاموا فيه مركزا تجاريا. وقد أصاب الوباء الجنويين المقيمين في هذه المدينة، ذلك أن مجموعة من القوارض (الفئران) قد تجاوزت قلاع المدينة من الأسفل ناقلة المرض إلى الجنويين، وهكذا أصاب المرض الطرفين المتصارعين فأضعفهما مما جعلهما يقيمان هدنة. بعد ذلك انتقل الجنويون في سفنهم حاملين المرض معهم، تلك الهدية المشؤومة، فنزلت سفنهم في القسطنطينية، ومعها الوباء القاتل، ومن القسطنطينية انتقل الوباء إلى ميسينا وهي مدينة إيطالية، ومن تم إلى مرسيليا، حيث كان الوباء قد غاب عن هذه المدن مدة طويلة، ففقدت بذلك كل مناعة ضد هذا الوباء. وخلال فترة لا تتعدى ثلاث أو أربع سنوات، انتشر المرض بشكل واسع ليمس أوروبا كلها وكل شمال إفريقيا والشرق الأدنى والمتوسط، ويقال أنه قد مس دول إفريقيا جنوب الصحراء لكن بدون وجود وثائق تؤكد ذلك، هكذا مات ما بين ربع و ثلث ساكنة أوروبا مما تسبب لها في نزيف ديموغرافي.

وكان من نتيجة ذلك، اندلاع موجات عنف ضد اليهود، اللذين اتهموا بنقلهم للوباء من خلال تسميمهم للآبار، هكذا، نظمت المجازر على أعلى درجات الوحشية وبموافقة السلطات، وذلك في مملكة فرنسا، و وادي الراين، وحده البابا حاول تهدئة الأمور باستعمال حجة منطقية، مفادها أنه لماذا اتهام اليهود بنشر الوباء ما داموا هم كذلك من ضحاياه؟ ولعل أشهر طاعون، هو طاعون لندن، الذي انتشر سنة 1665، وقتل واحدا من خمسة من الساكنة.

3 ـ المعطى الثالث: حول ما سمي ب "جدار الطاعون":

في سنة 1720، انتشر الطاعون في مدينة مارسيليا، وكان نتيجة وصول سفينة محملة بأثواب الحرير وغيرها قادمة من الشرق، وكانت الأثواب تحمل براغيث تحمل جرثومة المرض المنقول إليها من الفئران، فوضعت منطقة البروفانس تحت الحجر الصحي، وأقيمت حواجز في وجه المتنقلين للتأكد من عدم نقلهم للمرض، فوضع جدار كبير للحماية من انتشار الوباء امتد أحيانا إلى 36 كلم، وهو ما سمي ب "جدار الطاعون".

4 ـ المعطى الرابع: الصدمة الميكروبية ما بعد الكولومبية:

لعل أكبر كارثة صحية في التاريخ، هي تلك التي يسميها المؤرخون و العلماء ب "الصدمة الميكروبية ما بعد الكولومبية"، ذلك أن الهنود في القارة الأمريكية كانوا يعيشون في عزلة عن باقي العالم بدون احتكاك مع الفيروسات و البكتيريات، لكن مجيء الاسبان إلى القارة الأمريكية بقيادة كولومبوس في 1422 حمل معه مجموعة من الفيروسات و الميكروبات لم يكن يعرفها الهنود، و يتفق المؤرخون اليوم على أن السلاح القاتل الذي سمح للغزاة أمثال بيزارو و كورتيس بالقضاء على الامبراطوريات القديمة للأزتيك والأنكا، هو السلاح البكتيريولوجي المتمثل في الأوبئة، من قبيل الجدري و الحصبة، التي ساهمت في إبادة الهنود، و كما يعتقد الهنود في كون آلهتهم انتقمت من الإسبان، قام هؤلاء الأخيرين بنقل العديد من الآفات، فنقلوا معهم مرض السيفليس الذي انتشر في أوروبا منذ بداية القرن 16. وفي نهاية القرن 18، تم اكتشاف جزر أوقيانوسيا (تاهتي) من طرف اسبانيا، فكانت سنتان كافيتان لتصبح تلك الجزر فارغة من سكانها.

5 ـ المعطى الخامس: أوروبا القرن 19 والكوليرا:

عرف القرن 19 في أوروبا انتشار مرض الكوليرا، الذي تسببه باكتيريا فيبريون كولينج، والذي يؤدي إلى الموت بعد التسبب في إسهال كبير يؤدي إلى جفاف الجسم. لقد كانت البؤرة الأصلية للوباء في واد الغانج في الهند، حيث كان ينتشر استعمال سماد الروث البشري، هكذا انتشر الوباء بعدما كان منعزلا في آسيا لينتشر في العالم كله، نتيجة مجموعة من الأسباب، وهي العولمة واتساع التجارة العالمية واستعمال السفن البخارية واتساع سلسلة السكك الحديدية.

ومن بداية القرن 19 إلى أواسط القرن 20، انتشرت سبع جائحات ستمس آسيا والشرق الأوسط وإفريقيا وأمريكا اللاتينية، لكنها لم تمس أوروبا. وفي سنة 1832، مس وباء الطاعون مدينة لندن وباريس، حيث سقط الناس صرعى في مدينة باريس وقد وصل العدد إلى 20 ألف ضحية بمن فيهم رئيس الحكومة آنذاك كاسمير بيير بيريي.

6 ـ المعطى السادس: إنفلوانزا 1918 الإسبانية:

سمي هذا الوباء بالإسباني لأن إسبانيا التي كانت محايدة في الحرب العالمية الأولى، التي كانت تدور رحاها عندما انتشر الوباء، فتحدثت الجرائد عن الوباء باعتباره إسبانيا، و قد خيم الصمت حول هذا الوباء بين أطراف الصراع، في محاولة لكل طرف عدم إعطاء الانطباع باحتمال إمكانية إضعافه، فاكتفت كل العناوين الكبيرة للصحف الفرنسية و الانجليزية و الألمانية، بإعطاء انطباع بأن هذا المرض الغريب و البعيد لا يصيبهم، و كان ذلك خطئا فادحا نظرا لنتائجه الكارثية، حيث سيودي بحياة ما بين 80 و 100 مليون شخص، فقد انتشر الوباء في العالم كله.

7 ـ المعطى السابع: بصدد اكتشاف اللقاح:

لقد كان الصينيون أول من استعمل اللقاح ضد الأوبئة، لأنهم أدركوا مبدأ المناعة، انطلاقا من تجربة وباء الجدري، فتعلموا أنه لا يمكن الإصابة بها مرة ثانية بعد إصابة أولى، ومن هنا تولدت الفكرة بأنه إذا تم نقل جرعة قليلة من المرض إراديا إلى فرد ما، يتم حماية الشخص من الداء، وانتقلت الفكرة إلى الامبراطورية العثمانية، وعبرها إلى أوروبا في القرن 18، وقد كان الطبيب الانجليزي إدوارد جينير (1749 - 1823) أول من طور تقنية اللقاح، وجاءت أولى اللقاحات على يده.

III - من ذاكرة التاريخ : ثلاث أوبئة ساهمت في تغيير العالم :

يكاد يتفق مؤرخو الأوبئة على أن من بين العديد من الأوبئة هناك ثلاث أوبئة لعبت دورا هاما في تغيير مجرى التاريخ، أولها طاعون أثينا، ثانيها طاعون جوستينيان وثالثها الطاعون الأسود.

1 ـ طاعون أثينا: (يقول العلماء اليوم أنه التيفوئيد وليس طاعونا):

لقد ضرب هذا "الطاعون" أثينا سنة 130 قبل الميلاد، و قد كان اليونان القديم مقسما إلى مجموعة من المدن – الدول و في مقدمتها أثينا و سبارطة خصمها العنيد، و كان لكل منهما مناطق نفوذ و تحالفات تسعى إلى تحقيق القوة و السيطرة، و كانت أثينا دولة – مدينة تعيش على التجارة، و قوتها تقوم على البحر من خلال عدد السفن التي تمتلكها، كما كانت أثينا تعيش من دفع الإتاوات المفروضة على مجموعة من المناطق، التي كانت توجد تحت نفوذها، و كانت سبارطة الخصم القوي لأثينا تسعى لبناء قوتها هي الأخرى في البحر لمواجهة أثينا، و عانى اليونان من الانقسامات نتيجة ذلك، و خلال إحدى الحروب

بينهما، قام بيركليس، زعيم أثينا المنتخب ديموقراطيا ببناء حصن حول المدينة، استعدادا للحرب مع اسبارطة، و كان السكان اللذين يعيشون داخل الحصن يقدرون ب 40%، لكن "الطاعون" سرعان ما تفشى في المدينة فمات الكثيرون، و من بينهم بيركليس نفسه زعيم أثينا، و نتيجة ذلك انتشر التذمر و الانشقاقات في صفوف الأثينيين، لكن سرعان ما أدرك الإسبارطيون أن الوباء قد انتشر في أثينا، فتراجعوا خوفا من "الطاعون"، لكن بعد ذلك استغل الإسبارطيون الفرصة فاستقطبوا العديد من المرتزقة، و بنوا قوة بحرية، و حققوا الانتصار على أثينا ليدخل اليونان في مرحلة حروب لا تنتهي.

كان ل "الطاعون" أثر كبير على أثينا من حيث اضطراب الأوضاع الاجتماعية والاقتصادية والسياسية، مما أدى إلى انتقال أثينا من حكم ديموقراطي إلى حكم أوليغارشي، وهو ما سيطلق عليه ب حكم "الطغاة الثلاثون" (المعني هنا هم أصحاب المال اللذين كان عددهم ثلاثون) فزاد الاستغلال والاضطهاد والفقر، وتراجع الحق في التصويت ليتقلص إلى من يملكون أسلحة (هوبليت) يقدر ثمنها بثمن 20 بقرة، وهكذا ساهم "الطاعون" في سقوط أثينا وديموقراطيتها وانتقالها إلى الحكم الأوليوغارشي.

2 ـ طاعون جوستينيان وأسطورة انتصار العرب على الروم والفرس:

يعزو العرب و مؤرخوهم انتصارهم على جيش الحبشة بقيادة أبرهة إلى دعم من الإله، الذي أرسل "طير أبابيل ترميهم بحجارة من سجيل" مؤكدين على أسطورة انتصار قوة صغيرة على جيش عرمرم بفضل دعم الملائكة، و هو ما سيؤكدون عليه مرة أخرى من خلال الحديث عن الفرس و الروم، و الحال أن ما أسموه ب "العصف الماكول" ليس سوى طاعون رئوي يفتت الرئة، و عندما يبصق المصاب فهو يلقي قطعا من نسيج الرئة فتلتقطها الطيور، "أبابيل" هنا، و هي مصدر انتشار

الوباء، لكونها تتناول الجثث، و المقصود هنا في الواقع طيور الرخمة، التي هي طيور القمامة، و نوع من الجوارح التي كانت تتبع الجيوش لتأكل من الجثث، و من المعروف أن الدم عنصر معد، و مما يؤكد ذلك فإن الأقباط ذكروها في كتبهم.

لقد ضرب طاعون جوستينيان الروم (بيزنطة) سنة 540 ميلادية، واستمر إلى 690 ميلادية (حسب ويكيبيديا من 541 إلى 767، وهناك تواريخ أخرى، إلا أن الغالب هو استمرار الوباء لمدة 200 سنة)، وقد أودى بحياة 100 مليون شخص حسب بعض الدراسات.

لقد أصاب وباء جوستينيان الامبراطورية البيزنطة وخاصة عاصمتها بيزنطة، وكذلك الامبراطورية الساسانية (بلاد فارس) والمدن الساحلية حول البحر الأبيض المتوسط بأكمله، وانتقل إلى الهند وسواحل الخليج، حيث كانت السفن التجارية تأوي الفئران المصابة، التي كانت تحمل البراغيت الناقلة للوباء.

لقد كان لوباء الطاعون في بلاد الروم أثر كبير على الأوضاع الاقتصادية والسياسية، فانفجرت الأزمات التي شكل الطاعون بدايتها، هكذا انطلقت أزمات دينية وأزمات سياسية – دينية، أدت إلى تحولات كبيرة. لقد سبب الوباء، بالإضافة إلى أزمات تجارية واقتصادية، نشوء وضع جديد ضرب التضامنات القبلية، وعمق الفوارق الاقتصادية في بلاد الروم.

لقد أودى الوباء بحياة 40% من البيزنطيين، ومس بشكل خاص أعدادا كبيرة من الطبقات الوسطى والجيش والشباب القابل للتجنيد.

هذا هو السياق الذي أدى إلى سقوط امبراطورية بيزنطة، التي أصيبت بضعف شديد نتيجة الوباء، الذي طال أمده، فانتقلت الهيمنة الرومية على الحضارة إلى العرب القادمين من شبه الجزيرة العربية الصحراوية المناخ.

3 ـ الطاعون الكبير أو "الموت الأسود":

يستخدم مصطلح "الطاعون الأسود" أو "الموت الأسود" للإشارة إلى وباء الطاعون، الذي اجتاح أنحاء أوروبا بين سنتي 1347 و 1352، و تسبب في موت ما لا يقل عن ثلث سكان القارة، و قد انتشرت أوبئة مشابهة في نفس الوقت، في آسيا و الشرق الأدنى، مما يوحي أن هذا الوباء الأوروبي كان جزءا من وباء عالمي أوسع نطاقا، و انتهى الوباء سنة 1353 حسب بعض الدراسات، لكن الوباء كان له أثر كبير على تطور أوروبا اللاحق، نتيجة الخلخلة التي تسبب فيها على مستوى الأوضاع الاجتماعية و الاقتصادية و الفكرية و السياسية، فتغيرت الخريطة الاجتماعية، و تأثر بحكم ذلك الوضع الاقتصادي، و اهتز البنيان الفكري و الديني، و بدأت تتقوض أسس حكم النظام الإقطاعي، لتدخل أوروبا عصر النهضة. هكذا، عرفت الفنون والحرف تحولات بعدما كانت وراثية، وتنمى نمط الإنتاج الحرفي، واكتسب فلاحو أوروبا نوعا من الحرية الشخصية مقابل تقديم ريع وإتاوات للإقطاع، وظل الارتباط الشخصي بالأسياد الإقطاعيين قائما، ولأن الوباء ضرب أكثر من ربع سكان أوروبا، فقد فقد العديد من العاملين لحرفهم، لتظهر لأول مرة يد عاملة حرة فائضة، نتيجة لمناصب الشغل التي أصبحت شاغرة بشكل كبير، مما ساهم في تحسين وضعية العمال من حيث شروط عملهم. أما الفلاحون، اللذين كانوا يشكلون ثلثي المجتمعات الأوروبية، و اللذين كانوا قد اكتسبوا نوعا من الحرية الشخصية، و نوع من حرية الاتجار بخدماتهم، فقد جرهم ارتفاع الأجور في المدن ليلتحقوا بها بحثا عن عمل، هكذا بدأت تتشكل سوق عمل جديدة في أكبر المدن الأوروبية، سيساهم

نمو التجارة في اتساع نطاقها نظرا لتمركز الرساميل التجارية بها، لتصبح تلك المدن منطلقا لنمو الرأسمالية لاحقا لما توفرت عوامل أخرى، الشيء الذي لم يتوفر للمناطق الأخرى المصابة، كمنطقة الشرق الأدنى و المتوسط و الأقصى، فدخلت أوروبا عصر النهضة، و بدأ الغرب الأوروبي يتقدم ليحقق قدم السبق في ذلك.

تسبب الوباء في أوروبا في زلزال عنيف أصاب المؤسسة الدينية السائدة، لما بدأ الناس يتهكمون من الرؤى الدينية، و رأوا بأم أعينهم كيف أصاب الوباء الجميع، و لم تنفع معه كل الصلوات، فرأوا قساوسة و رجال الدين عموما، و الناس المؤمنين و قد نال منهم الطاعون فلقوا حتفهم، بينما رأوا كذلك العديد من المجرمين و القتلة و اللصوص لم ينل منهم الطاعون، بينما سقط أطفال و أبرياء و مؤمنون، و سقطت كذلك مناعة رجال الدين و تهاوت القداسة أمام تغول الوباء، فانفجر العقل الديني، وبدأت المعتقدات و الخرافات تتهاوى تباعا، و تحول العديد من رجال الدين، من رجال دين إلى مثقفين، و انطلق نقد الدين تدريجيا، و بدأت الفلسفة تعرف نوعا من التطور، كما ظهر نوع من المثقفين الأحرار.

لقد كانت أوروبا تتطور في اتجاه تشكل شعوبها القومي، وتحولت اللغات المحلية إلى لغات قومية، وبدأت الدولة في بعض المناطق تعرف نوعا من التمركز، فتشكلت مجموعة من العناصر الممهدة للانتصار اللاحق لطبقة جديدة ظهرت في المدن، هي البورجوازية، نسبة إلى بورغ، وهي المدينة الصغيرة في القرون الوسطى، وبقي عنصر وحدة السوق القومية ينتظر تشكيله، لتكتمل صورة التطور الرأسمالي، فجاءت الثورة الانجليزية في 1679 وبعدها الثورة الفرنسية في 1789 لتفتحا طريق الانتصار الحاسم للطبقة البورجوازية على الإقطاع.

VI ـ الكوسموغونيا، الكوسمولوجيا، الإسكاتولوجيا ونهاية العالم :

(الفزع الذي لا ينتهي)

تعيش أغلبية كبيرة من سكان الأرض تحت تأثير الأساطير والخرافات، التي تتحدث عن نهاية العالم، وتلعب الديانات دورا كبيرا في نشرها، ويعيش الإنسان بحكم تأثيرها في فزع وقلق لا ينتهيان.

عندما اكتشف العلماء والباحثون ليومية المايا المنقوشة على حجر، وجدوا أن حضارة المايا قد قامت بحسابات تتنبأ فيها بنهاية العالم في 21 دجنبر 2012. ولا تخلو كل الديانات والمعتقدات القديمة من تواريخ مماثلة تتنبأ فيها بنهاية الزمن، وقد نشأ علم خاص يسمى الإسكاتولوجيا، ويختص بدراسة نهاية الزمن، وتأسس المصطلح لأول مرة في 1864، وسنقوم هنا بمحاولة للتذكير بأهم هذه الأساطير والخرافات، التي تسببت وتتسبب في فزع الناس وخوفهم المستمر، خاصة وأن أغلبها يربط بين هذه النهاية وسلوكات الإنسان وممارساته.

1 ـ مفهوم الزمن الدائري، أو الزمن كعجلة أو سهم:

لقد تبلور هذا المفهوم في التاريخ القديم لتفسير نهاية العالم، وارتبط عند مبلوريه بدورة أو تعاقب الفصول، أي الاختفاء من أجل العودة والولادة من جديد، وانتشر هذا المفهوم الدائري عند بعض الشعوب في الهند وبلاد الأمازون، ففي الهند يعتبرون أن تفسخ "البرالايا" يسببه دخول البراهمة (مهندس الكون) في حالة نوم، ويحمل هذا المفهوم تصورا متفائلا، لأنه مرتبط بالعود الأبدي.

أما الصيغة المصرية القديمة لمثل هذا التصور، فتتمثل في اختفاء الإله رع كل ليلة وراء الأفق ليولد من جديد في الصباح، أما في اليونان فإن بيرشيفون يعود بالحياة بخروجه من الجحيم لبضعة أشهر.

2 ـ الزمن الخطي:

لقد كان العبرانيون وراء هذا المفهوم، الذي يرى أن الزمن يمضي بطريقة لا عودة فيها بين البداية والنهاية، من نشوء آدم باعتباره بداية الكرونولوجيا التوراتية إلى نهاية الزمن، وبالتالي نهاية الأرض. وبشكل مواز لهذا المفهوم، الذي يعتمد على مفهوم لعالم منته، أنشأت الديانات الثلاث، اليهودية والمسيحية والإسلام، القناعة بأن هناك عالم آخر من غير ذلك الذي يعيش فيه المؤمنون، عالم يتميز بالكمال ولا يعرف الشر والموت، وقد وجدت بذور هذه الأفكار عند الفراعنة والديانة المجوسية. إن هذا الأمل في حياة خالدة لا ينفي الفزع والقلق، لأنه قبل السعادة الأبدية لابد من مواجهة الكوارث المؤدية إلى تحطيم المجتمعات القديمة، بمعنى آخر، يتولد خوف وفزع باستمرار.

وكنتيجة حتمية لهذا التصور، كان لابد من اختراع طريقة للتخلص من أوساخ الحياة اليومية المجتمعية، وضمان انتقال سلس للحياة الأبدية عبر "مسح الطاولة" وتنظيف العالم من الذنوب والآفات.

- التنظيف بمياه كثيرة: أسطورة الطوفان:

إن القيام بهذا العمل، وبشكل منتظم، يسمح لكل الآمال أن تعود من جديد، وقد حضرت هذه الفكرة لدى العديد من الحضارات، وأسطورة الطوفان إحدى أقدمها والأكثر انتشارا في العالم:

عند سكان بلاد الرافدين:

اكتشف المؤرخون أن بلاد الرافدين كانت تنتشر فيها أسطورة أتراهاسيس (17 قرنا قبل الميلاد)، كما وجدوا ملحمة جلجاميش حوالي 20 قرنا قبل الميلاد، وذلك في مكتبة الملك الآشوري آشور بانيبال، وتتحدث الملحمة عن الطوفان تماما، كما تم الحديث عنها في سفر التكوين حوالي القرن السابع قبل الميلاد، أي 13 قرنا بعد ذلك، وهكذا نشأت أسطورة سفينة نوح.

ـ القيامة من أجل الطمأنة:

عند نهاية القرن الأول بعد الميلاد، كان المسيحيون يعيشون كأقلية في الامبراطورية الرومانية، يتعرضون للاضطهاد والتعذيب، وكان لابد من البحث عن مواساة لهم من أجل أن يستمروا، فظهرت فكرة العودة القريبة للمسيح المسماة الباروسيا، التي ستضع نهاية لعذاباتهم ومآسيهم، فقام القديس جان بتحرير آخر كتاب للعهد الجديد تحت اسم "القيامة" (الآبوكاليبس)، وذلك في جزيرة باطموس. لقد أعلن كتاب الأبوكاليبس عن نهاية معاناة المسيحيين، بإقامة مملكة المسيح على الأرض لمدة ألف سنة، تسودها السعادة الكاملة، مع عودة القديسين اللذين سيتم إحياؤهم من جديد، ثم بشر الكتاب المسيحيين بعودة جديدة ستسبق المحاكمة النهائية والخلاص الأبدي، لكن قبل ذلك الظهور، ستأتي مرحلة من الكوارث والمحن والحروب والموت والمجاعات ليظهر فرسان الآبوكاليبس الأربعة، وتقوم الملائكة لتنفخ في المزامير، التي ستولد الحرائق والفيضانات وغزو الحشرات.

وسط هذه الرؤية المرعبة تنتصب "الدابة"، وهي وحش ضخم له صورة فهد بسبعة رؤوس مكلف بإنهاء إفساد الإنسانية، ويرى البعض في ذلك رمزا للمسيح الدجال، الذي يتقمص عملية الإنقاذ. ومهما كانت التأويلات، فالرسالة واحدة، وهي أن على المسيحي أن ينتظر محنا جديدة، التي عليه أن يتحملها قبل أن يأتي خلاصه بعودة المسيح، ليخلق "سماء جديدة وأرضا جديدة".

3 ـ الخوف من الرقم الدائري:

كلما عاد التقويم المسيحي إلى الرقم الصفر- ولعلنا نتذكر ما حصل سنة 2000 والهلع الذي أصاب الناس خوفا من نهاية العالم- كلما تحرك جماعة من رجال الدين والمنجمين ليحدثوا الناس عن نهاية العالم، لأن العودة إلى الرقم 0 تعني كل شيء، وبالعودة إلى التاريخ نعرف أن رجل الدين دينيس لوبوتي، بتكليف من البابا جان الأول، هو الذي قام بطريقة تعسفية بتحديد التقويم المسيحي الذي يبدأ يوم فاتح يناير، والذي يوافق يوم ختان المسيح. وعند المسيحيين فالأرقام 1000 تشكل رمزا للانهائي، فألف يوم تساوي يوما واحدا عند الله، وألف سنة تساوي سنة واحدة عند الله، ويقوم من يطلق عليهم اسم "الألفيون" في المسيحية بتأويل لنص "الأبوكاليبس" فحددوا الألفية (الملينيوم) بمرحلة تمتد بين الانتصار على الشر ويوم الحساب الأخير، وشكل اكتشاف أمريكا نموذجا بالنسبة لهم، حيث لا يزال في أمريكا إلى يومنا هذا من يروج لذلك، ويطلق عليهم المورمون أو شهود جيهوفا.

من باب الكوارث التي تسبب فيها هذا المعتقد، هو ما حصل في السنة الألف بعد الميلاد وما سيليه في القرون التالية، حيث روج رجال الدين لمعتقدهم حول الألفية، إذ اعتبروا أن العد العكسي للآبوكاليبس قد بدأ مع ولادة المسيح، إذن فالسنة

1000 يجب أن تعني نهاية الزمان، وظهر الخلاف فيما بينهم حول، هل يعود إلى تاريخ ولادة المسيح أو تاريخ وفاته، وبما أن أصحاب الرأي الثاني اعتبروا أن وفاة المسيح كانت في عمر 33 سنة، فتلك النهاية ستعود إل 1033 سنة.

عاش الناس منذ تلك الفترة، خاصة في أوروبا، المزيد من الخوف والهلع، سيزيد منه في نهاية القرون الوسطى، انتشار الطاعون الأسود والحروب وسقوط بيزنطة، والعديد من الأراضي المسيحية، ثم ظهور العديد من الانقسامات الدينية، مما زاد في الخوف والقلق والهلع من المستقبل، ليصل قمته في عصر النهضة بتزايد انتشار الخرافة وانطلاق ما يسمى بمطاردة الساحرات، ولم تعد الثقة في المستقبل في أوروبا إلا في نهاية القرن 17. (انظر كتاب "تاريخ فرنسا، الكتاب السابع، 1876"، جول ميشلي).

لم تتوقف التأويلات خلال وبعد نهاية الامبراطورية الرومانية، هكذا، ففي القرن 15، حيث كان السياق يتميز بانتشار الأوبئة مما أضعف الإيمان لدى الناس، ظهر الكثير من المتنبئين ينذرون الناس، وكان أشهرهم جوهان ستوفر، الذي استطاع أن يقنع جزءا من معاصريه بأن يبنوا سفن نوح. وفي سنة 1914، أعلن شارل طاز راسل مؤسس "شهود جيهوفا" أن 1914 هي السنة الأخيرة لانطلاق الآبوكاليبس.

وفي يومنا هذا، مع تطور وسائط التواصل وانتشار فقدان الثقة في السياسة، توفرت الأرضية الخصبة لانتشار أعداد كثيرة من المتنبئين، اللذين يستغلون خوف وهلع الملايين من الناس.

V ـ العلم والمقاربة العلمية للتاريخ ونهايته:

1 ـ قدم العالم وحركية التاريخ البشري والطبيعي:

لقد تطور منذ القرن 18 منظور الإنسان لذاته وللطبيعة، هكذا، قام علم دراسة المستحثات منذ ذلك الحين بتثوير نظرتنا للكرونولوجيا التاريخية منذ التاريخ القديم، وكان الأمر يتعلق ببقايا كائنات عملاقة تعود إلى "ما قبل الطوفان"، فتحقق الإنسان من قدم الحياة بشكل كبير، وكان هذا العلم مع بوفون[5] قد وصل بنا إلى 75 ألف سنة قبل الميلاد بالنسبة لحياة البشر، ولم يتوقف العلم عند هذا الحد، فقد توصل الآن إلى أن ظهور البشر يرجع إلى حوالي خمسة ملايين سنة، ونعني أجداد البشر الأوائل. وفي عصر الأنوار أصبح بالإمكان إدراك فكرة الطبيعة باعتبارها في سيرورة تطور مستمرة.

في القرن 19، جاء داروين بنظرية الانتقاء والتطور، التي برهنت علميا على وجود تطور في الأنواع (حيوانية، نباتية ومعدنية) عبر طفرات في التطور، تؤدي إلى ظهور أنواع جديدة، وقد شكلت هذه النظرية ضربة قوية للمعتقدات والفكر الخرافي حول ما سمي بخلق البشر وكل الكائنات والنباتات دفعة واحدة على طريقة كن فيكون، فقامت الكنيسة الانجليكانية في بريطانيا بطرد داروين من المسيحية وتكفيره.

5 .بوفون: هو جورج – لويس لو كلير دي بوفون، مؤرخ طبيعي ورياضي وعالم كون فرنسي (1707 – 1788).

كما ساهمت الاكتشافات حول ظهور الدناصير وانقراضها في تحديد تاريخ وجودها الذي يعود إلى 65 مليون سنة. وعرف علم الفلك هو الآخر تطورات هائلة حول عالم الكواكب والمذنبات والنجوم المحيطة بنا، فاتسعت المعرفة إلى أوسع حدود لتمس عالم المجرات وغيرها، وذلك منذ غاليليو وكيبلر وكوبرنيك ونيوتن.

ساهمت النظريات العلمية في انتشار التفاؤل والإيمان بقدرات العقل الإنساني ونسبنة الفكر البشري وفي ضرب الدوغمائيات الدينية وغيرها. وحول سؤال نهاية العالم (الأرض عند المؤمنين)، الذي طالما أرق الفكر الإنساني فأنتج العشرات من النظريات حول هذه النهاية وربطها بمعتقداته الدينية والخرافية، فقد أجاب العلم بشكل قطعي عن تاريخ تلك النهاية بعيدا عن كل تصور ديني أو خرافي أو عقيدي، مقدما السيناريو الأكثر تأكدا من وجهة نظر الإسكاتولوجيا، عندما ربط ذلك بموت الشمس بعد استنزاف كل احتياطاتها من الهيدروجين، مما سيؤدي إلى نهاية الحياة على سطح الأرض، بل انفجار كوكب الأرض. وقد سمحت حسابات العلماء، باستعمال الرياضيات، إلى تحديد تاريخ ذلك الحدث المؤدي إلى نهاية الحياة على الأرض في 5 ملايير من السنين.

ومن المفارقات التي نعيشها اليوم رغم التطور الهائل الذي عرفته مختلف العلوم، هو عودة انعدام الثقة في العلوم والتشكيك فيها، بل الاستخفاف بالعقل البشري وقدراته، فعادت المعتقدات الدينية والخرافة تزحف على العقول وتعيد الاستيلاء على مواقع فقدتها منذ عصر النهضة، فظهرت تصورات حول تسطح الأرض وحول خلق الإنسان من طرف الإله، وحول قرب نهاية العالم وما سيسبق ذلك من حروب وأهوال، بل وظهر دجالون من كل صنف ودين، يبشرون بقرب ظهور المسيح أو المهدي المنتظر أو عزرا ... كمنقذين للبشرية.

وقد ساهم انتشار نظريات ما يسمى ب "ما بعد الحداثة"، المشككة في كل الخطابات الفلسفية والعلمية على حد سواء، في تقديم الأرضية المناسبة لانتشار الخطابات الظلامية واللاعقلانية والخرافية، هكذا أصبحت البشرية من جديد تشكك في كل إنجازات العقل البشري، وأصبح الشك حتى في مستقبل الإنسان، وذهب التفاؤل أدراج الرياح وعم التشاؤم وسقطت من الحسبان فكرة التقدم، التي أتت بها الحداثة التنويرية.

ولعل السياق العام المتميز بتعمق الأزمة البنيوية للرأسمالية، و ما يرافقها من أزمات إيكولوجية، إقليمية و عالمية (الاضطرابات المناخية و إضعاف طبقة الأوزون و التحولات الجينية للنبات و الحيوان ...) و صحية (انتشار الأمراض و الأوبئة و الجوائح و غيرها)، قد نمى الخوف و الهلع من مستقبل الإنسان و الكرة الأرضية، لحد أن البعض بدأ يتحدث عن انتحار جماعي للمجتمع الإنساني، بل هناك من صرح بأنه "فليأت فرسان الأبوكاليبس سنقدم لهم المساعدة القوية"، و ظهرت العديد من الكتب و المقالات حول النهاية الوشيكة للعالم تروج لها العديد من الصحف و القنوات و المواقع الإليكترونية.

إن قيم التقدم و العقل و التنوير و الحرية و الحداثة الثورية، ستبقى عصية عن كل انكسار في هذا الزمن الرأسمالي الآيل للسقوط، كما أن قيم الحفاظ على البيئة بكل مكوناتها، و إعادة الاعتبار لكرامة الواقع و التعايش بين الإنسان و محيطه الطبيعي، في ظل ثقافة إنسانية متصالحة مع ذاتها، من أجل أنسنة الطبيعة وطبعنة الإنسان، كلها قيم تحملها الاشتراكية بشكل متأصل، كأرقى ما بلورته الإنسانية المعذبة في شخص الطبقة العاملة، من أجل الانتقال من الحلم إلى الواقع، و تجسيد

مجتمع الإنسان على الأرض، الإنسان المحرر من كل القيود، إنسان المجتمع الشيوعي، و ستظل الشيوعية شبابا دائما للعالم، فعلينا أن ندرك أننا في حالة انتقال، من عالم قديم إلى عالم جديد رغم أن الولادة عسيرة.

القسم الثاني

الاقتصاد السياسي

I - العولمة الرأسمالية وتكاثر الأوبئة

مع بداية القرن 21، انتقل العالم من زمن السيدا إلى زمن زيكا، مرورا بسراس و1N5H أو 1N1H، و أصبح الحديث عن أمراض و فيروسات كثيرة، مثل طاعون الخنزير الإفريقي، الكامبي لوباكتير، الكريبتو سبيريديوم، سيكلوس بورا، إيبولا، إ. كوليو 157، 7H، مرض الحمى القلاعية،التهاب الكبد، الإستيريا، فيروس نيباه، حمى "كيو"، سالمونيلا، الفيبريو، اليرسينيا، و أنواع جديدة من الأنفلوانزا، خاصة:

H5N2، H5N1، v(H3N2) ، v(H1N2) ، H1N1 (2009) ، H9N2، H7N9، H7N7، H7N1، H6N1، H5NX.

إن العوامل المسببة للمرض، كما تظهر ذلك العديد من الدراسات، تنبثق مباشرة من مراكز الإنتاج، فالبكتيريات من أصل غذائي كالسالمونيلا و الكامبي لوباكتير تنبثق منها. والكثير (مثال كوفيد 19) هي من أصل يعود إلى ما يسمى بحدود الإنتاج للرأسمال. فبالفعل، فعلى الأقل 60% من العوامل المولدة للمرض ذات العلاقة بالإنسان، تنبثق، وتنتشر من الحيوانات البرية إلى الجماعات البشرية المحلية، وأكثرها فعالية تنتقل إلى باقي العالم.

هناك جهل للخرائط الإيبيديمولوجية، وهناك أيضا جهل للعلاقات المشتركة بين الفاعلين الاقتصاديين العالميين، اللذين يشاركون في صنع الإبيديمولوجيات، فبضائع شركة مثل جانسون أند جونسون (بالموليف و كولكات) تنتقل عبر مراكز تنتشر فيها الأسباب المولدة للجراثيم، من قبيل الهند و أندونيسيا و أمريكا اللاتينية و الصين.

غالبا ما يرجع الإعلام الغربي مسؤولية الأوبئة إلى السكان المحليين، و الحال أن المبادلات الإيكولوجية غير المتكافئة، تنقل أسوء كوارث الزراعة الصناعية نحو دول الجنوب، فبالرغم من التنقل العام لساكنة المناطق القروية نحو مدن القصدير في المدن، و التي تستمر، اليوم، عبر العالم، فالانكسار بين المناطق القروية و المدينية، و الذي يدور حوله النقاش فيما يخص علاقة ذلك في انبثاق الأمراض، يتجاهل، أو يجانب مسألة هامة، تتعلق باليد العاملة الموجهة إلى المناطق القروية، و كذلك النمو السريع للمدن القروية في ضواحي المدن.

لقد استطاع مايك ديفس في كتابه "كوكب السكن العشوائي" أن يبين كيف أنه في نفس الوقت تعمل المساحات التي تمت إقامة المدن عليها، كأسواق محلية وملتقيات إقليمية بالنسبة للمنتجات الزراعية العابرة.

هكذا، تكون النتيجة تغيرا في الأمراض الغابوية، المصدر الأول للعوامل الباطوجينية (الناقلة للأمراض)، التي لم تعد محدودة في المناطق الداخلية النائية، فهكذا مثلا، أصبح بإمكان سراس (الذي تحمله الخفافيش) أن ينتقل بشكل مفاجئ وينتشر وسط ساكنة مدينة كبيرة تبعد بضع أيام عن مغارة الخفافيش.

إن الأنظمة البيئية التي كانت تراقب الفيروسات البرية، عن طريق التكوين المعقد للغابة الاستوائية قد تم القضاء عليها، عن طريق اجتثاث الغابات من طرف الرساميل، ومن جهة النمو في ضواحي المدن فيتم ذلك عبر عجز السياسات الصحية العمومية، وكذلك تطهير البيئة.

إن الحيوانات نفسها لم تنج من هذه النتائج الكارثية، علما أنها كانت منذ أزمنة غابرة مخزنا احتياطيا للعديد من الأمراض، فقد أصبحت العديد منها تعيش كمجموعات مفرقة ومقسمة بسبب اجتثاث الغابات، وقد كان لذلك آثارا كارثية على حياتها،

فقردة "العالم الجديد" (القارة الأمريكية)، والتي تتميز بحساسية كبيرة للحمى الصفراء من نوع بري، والتي أصبحت تتعرض لها، على الأقل منذ مئة سنة، بدأت تفقد مناعتها الفعلية وتموت بمئات الآلاف.

عبر انتشارها العالمي، فإن الزراعة الأساسية تلعب في نفس الوقت دور الدفع والربط، اللذان تهاجر عبرهما العوامل الباطوجينية ذات الأصول المختلفة من الخزانات الأكثر بعدا إلى المراكز السكانية الأكثر عالمية، وينطبق هذا كثيرا على الأمراض التي تكون عواملها الباطوجينية من أصول زراعية أو غذائية. إن هذه الأمراض تعود للانبثاق من جديد.

إن الزراعات الوحيدة الجينية المتزايدة (المقصود هنا الحيوانات والنباتات الموجهة للتغذية وذات جينوم متشابه) تزيل جهاز الحماية المناعي، الذي في حالة مجموعات متنوعة، يحد من نقل العدوى.

خلاصة القول، فإن هذا التطور لا يمكن إدراكه إلا في إطار شمولي يأخذ بعين الاعتبار:

1 ـ القنوات العالمية للرأسمال.

2 ـ انتشار هذا الرأسمال الذي يحطم التعقيد البيئي الإقليمي، الذي يحد، ويتحكم في نمو مجموعة العوامل الباطوجينية الحادة.

3 ـ النمو الناتج عن المعدلات والاتساع التاكسينومي للنتائج.

4 ـ اتساع قنوات منتجات الضواحي، التي ترسل العوامل الباطوجينية جديدة الانتشار وسط القطيع الحيواني و وسط الأيدي العاملة في المناطق الداخلية النائية، وذلك نحو المدن الإقليمية.

5 ـ إن القنوات والشبكات العالمية والأسفار (تجارة القطعان كمثال)، التي توفر العوامل الباطوجينية تنتقل من تلك المدن إلى باقي العالم في زمن قياسي.

6 ـ هناك كذلك هاته القنوات التي تحد من احتكاكات الانتقال (العدوى) وذلك عبر انتقاء تطور معدل وفيات أكبر للعوامل الباطوجينية عند القطعان وعند البشر.

7 ـ إن فقدان القطيع لإمكانية إعادة إنتاج نفسه في مكانه الطبيعي (حالة القطيع الصناعي) يساهم في إزالة الانتقاء الطبيعي، باعتباره خدمة من طرف النظام البيئي، الذي يوفر حماية ضد الأمراض في زمن فعلي، ويكون مجانيا.

إن هذه الحالة العامة، جعلت العديد من الاختصاصيين والعلماء يتحدثون عن الحرب ضد صحة البشر التي تخوضها الصناعات الزراعية.

II - الرأسمالية نمط إنتاج عالمي

ليست الرأسمالية مجرد اقتصاد قائم على توزيع خاص للملكية، وتوزيع آخر خاص بالخيرات، بل إنها نمط إنتاج، عبره تجد الإنسانية، اجتماعيا، الوسائل المادية لتحقيق وجودها وضمان تطورها. لقد عرف هذا النمط من الإنتاج تطورا هائلا للقوى المنتجة، خاصة منذ بداية القرن 21، وبحكم طبيعته الكونية يقوم نمط الإنتاج الرأسمالي بتثبيت كل الأنشطة الكونية لصالحه، وبالتالي فالنتائج والانعكاسات تمس كل مظاهر الحياة على مستوى الكرة الأرضية، ضمن امتداد زمني مستمر.

هكذا، فظهور جدر من كورونا فيروس خالص لم يسبق اكتشافه عند الإنسان، لم يكن وليد الصدفة، إنه منتج جديد، هو عبارة عن قفزة نوعية للفيروس ناتجة عن تصادم بين المدن والبوادي أنتجه نمط الإنتاج الرأسمالي، ونمط الحياة المرتبط به بشكل عام على المستوى الكوني.

لا يجب الاعتقاد أن الأزمة الصحية تأتي من خارج الإنسانية، أي من خارج نمط الإنتاج الرأسمالي، بل إنها تولد من رحم نمط الإنتاج الرأسمالي، ومن قلب العالم الذي صهره على شاكلته وصورته، وهذا العالم ليس نهائيا ولا تابتا ولا مستقرا ولا دائما، بل يتهاوى تحت ضربات قانون صراع القديم والجديد، ويخضع لقطائع مستمرة.

إننا نعيش في زمن يعرف احتباسا حراريا واجتثاثا للغابات وقضاء مكثف على الحيوانات البرية، واستعمالا مكثفا للحيوانات في الصناعة، وتطورا فوضويا وعشوائيا للفضاءات الحضرية، التي تعرف تطورا هائلا ودائما على حساب الغطاء الأخضر.

إن كوفيد 19 قد تولد مباشرة من نمط الإنتاج الرأسمالي في الصين، التي عرفت تطورا رأسماليا احتكاريا وبيروقراطيا، أنتج التجمعات الحضرية الكبرى (المتروبولات) في وقت وجيز، اكتسحت محيطها الطبيعي، ومدينة ووهان، موطن انطلاق كوفيد 19 هي نموذج لذلك. فقد عرفت المدينة تطورا على الشكل التالي:

- 1953 ← عدد السكان: أقل من مليون ونصف نسمة.
- 1970 ← عدد السكان: 2200000 نسمة.
- 1982← عدد السكان: 4000000 نسمة

- 2000 ← عدد السكان: 8000000 نسمة.

- 2018 ← عدد السكان: 11895000 نسمة.

إن مدينة ووهان تدمج ثمان مدن من مستوى هام ضمن تجمع حضري يضم هوانغ شي، إرزهو، هوانغ غنغ، كسياو غان، كسيانينغ، كسيانتاو، تيان آنمين، كيانغ جيانغ.

يتم تقديم مدينة ووهان (مركز فرنسي سابق) كنموذج صيني في مجال التطور الحضري، فقد عرفت المدينة تطورا هائلا في مجال بناء البنيات التحتية الطرقية، فالمدينة تتوفر على خط مترو وعلى قطار الضواحي الفائق السرعة، كل هذا يمتد على 400 كلم. إن هذا البعد الحضري ليس إلا جانبا من المسألة، فثلث السكان لا زالوا يعيشون في البوادي ضمن تجمع، نجد فيه حضورا لأهم الماركات العالمية مثل كارفور، أوشان، ستاباكس، بيتزا هوت، CFK...

إن أصل فيروس كوفيد 19، يعود إلى التمدين المفرط لفضاء ووهان، مع استعمال حيوانات برية أو آتية من تربية الحيوانات في التغذية، إنها الأرضية غير الطبيعية الملائمة لحصول طفرة في الفيروس، الذي انتقل من نوع إلى نوع آخر، سينتقل معها إلى الإنسان.

إن الأمر هنا، لا يتعلق بلقاء مع مرض غير مكتشف لحد الآن، بل إنه مواجهة بين الإنسان ومرض منبثق من تحول وطفرة تسبب فيها نشاط الإنسان نفسه.

1 ـ المتروبول كقاعدة لنمط الإنتاج الرأسمالي

مدينة ووهان، هي كما يطلق عليه الآن "مدينة مستدامة"، "فرنسية – صينية" بمساحة 39 كلم مربع، تم تصورها خلال مرحلة فرانسوا هولاند، ومن المعروف أن سنة 2018، قد أطلق عليها "السنة الفرنسية – الصينية للبيئة"، فخلال ذهابه إلى الصين، وبهذه المناسبة، صرح ماكرون قائلا:

"إن التمدين قد أصبح فعلا تحديا في الصين، وسيكون غدا كذلك أكثر. إن فرنسا ترغب في دعم شركائها في هذا المجال، بتطوير العرض المندمج، الذي أنشأناه بالنسبة للمدينة المستدامة".

هناك التقاء رأسمالي عالمي حول إنشاء المتروبولات كمدن ضخمة واسعة الأطراف، فأغلبية البشرية تعيش اليوم في المدن. إن البورجوازية، منذ انتصارها على الإقطاعية، لم تعد قادرة على بناء مدن بالمعنى التاريخي للكلمة، لقد شوه نمط الإنتاج الرأسمالي مدن العالم التاريخية، والموضة اليوم والقاعدة هي بناء متروبول متعدد التشعبات، استبدادي لا يكشف عن هويته ومشوه بالكامل. إن هذا الشكل هو الأكثر توافقا مع تلبية الإنتاج والاستهلاك الرأسمالي ل 24 ساعة على 24 ساعة للرأسمالية.

إن هذا يساهم في تدمير الطبيعة والسحق المعنوي، الثقافي والبسيكولوجي للعمال خاصة والبشر بصفة عامة.

يتحدث ماركس هنا عن:

"الارتباط المميت بين تراكم الرأسمال وتراكم البؤس، لدرجة أن تراكم الغنى في قطب يساوي تراكم الفقر والمعاناة والجهل والبلادة والانحطاط الأخلاقي والعبودية في قطب مضاد، من جهة الطبقة التي تنتج نفسها الرأسمال".

إن المدينة التاريخية، مدينة البورجوازية التي كانت تعني الثقافة والمبادلات واللقاءات لم تعد قائمة، فهذا لا يتوافق مع نمط الإنتاج الرأسمالي، الذي يتميز بالطغيان، والذي لا يعرف في العلاقات سوى العلاقات التجارية (تبادل السلع والمصالح والخدمات) الأكثر اتساعا والأسرع والأكثر إتقانا.

إن المدينة المعاصرة هي من الآن فصاعدا، مكان للسكن المنعزل، الذي يتم العمل من أجل إعطائه قيمة أكثر، وإذا أمكن ذلك، حيازة ملكيته. فكل شيء بعيد، وبعيد أكثر فأكثر، سواء تعلق الأمر بالترفيه أو بإمكانية ممارسة الرياضة أو القيام بالتسوق، وكل الناس اللذين نلتقي بهم مرتبطين بعلاقة تجارية، فكل شيء يجب أن يمر عبر نمط الإنتاج الرأسمالي.

في الحقيقة، فنمط الإنتاج الرأسمالي ليس له سوى منطق واحد: تطوره الخاص، وبالتالي لا يتحرك عن طريق الاختيار، بل عن طريق الضرورة، لأن وجوده مرتبط بتطور غير منقطع وموسع للرأسمال. إن أفقه هو نفسه (يدور حول نفسه).

لقد أظهر مرض كورونا 2019 الطابع المحدود لنمط الإنتاج الرأسمالي، بل وعبثيته. إن نمط الإنتاج الرأسمالي هو كذلك يتأسف على أزمة مرض كوفيد 19، ولكن في نفس الوقت إذا كان الأمر لابد أن يعاد سيعيده، فنمط الإنتاج الرأسمالي لا يسمح لنفسه بأي تراجع، ولا بأي تحليل في العمق، لأنه يعيش في لحظية تحقيقه الذاتي، ليس له أي اعتبار حول نفسه، فهو نظام له غايته في ذاته، أي نظام مغلق وشمولي، إذن هو نظام طغياني.

بالنظر إلى السوابق من قبيل فيروس نقص المناعة البشرية وأنفلوانزا الطيور وأنفلوانزا الخنازير، والأنفلوانزا الإسبانية، كانت بداية تعميم لعلاقة مشوهة وغير طبيعية مع الحياة من طرف النظام الرأسمالي.

وبالفعل، فمن التناقض بين نمط الإنتاج الرأسمالي والحياة على الأرض، تولد ظواهر مدمرة، فنمط الإنتاج هذا لا يقارب الواقع إلا كوسيلة إحصائية وبيانات كبيرة والتقدير الكمي للمعطيات فقط. إن مسألة التطور النوعي غريبة عن نمط الإنتاج الرأسمالي، ذلك، لأنه نمط إنتاج أحادي، يجيب فقط عن منطقه الخاص للتراكم ولا شيء آخر، لا يمكنه إلا أن يلاحظ بشكل سلبي ببقائه كما هو.

إن نمط الإنتاج الرأسمالي له مصلحة في أن يتوفر على كل ما يشكل مصادر طبيعية كامنة، بمعنى الحفاظ عليها، لكن من جهة أخرى فهو محكوم عليه بإدماجها وإعطائها قيمة بسرعة من أجل تلبية حاجيات الإنتاج والاستهلاك القائمة على الرأسمال. إنه تناقض لا يمكن تجاوزه كما نرى ذلك في مسألة الاحتباس الحراري.

يمكن تلخيص المأزق الذي يقع فيه أنصار نمط الإنتاج الرأسمالي فيما يلي:

- إما أن الاحتباس الحراري لا قيمة له

- وإما على الرأسمالية أن تطور أسواق جديدة من أجل التأقلم

إننا أمام قضيتين من نفس العملة، فالعالم الآن يشهد على اجتثاث غابة الأمازون والاستعمال الكثيف للطاقة الأحفورية في الشرق الأوسط والزراعة الوحيدة (الكاكاو في إفريقيا الغربية) وزيت النخيل في أندونيسيا وماليزيا ... ولا يعرف نمط العيش في ظل نمط الإنتاج الرأسمالي أي تحول نوعي، بل يسير نحو الأسوأ بعدما تعمق وتم تعميمه على مختلف دول العالم.

2 ـ كوفيد 19 ودلالته

لقد بينا أعلاه علاقة نشأة الفيروسات وانتشارها بنمط الإنتاج الرأسمالي، وعلينا أن ندرك الآن أن هذا النمط من الإنتاج قد وصل إلى حدوده القصوى، بمعنى أنه أصبح يضر بمجموع الواقع على جميع المستويات "لم يعد قوة بانية بل قوة مدمرة تخلق الاضطرابات". فبقدر ما يتطور، بقدر ما يواجه حدوده، بل وعجزه عن تحقيق إعادة الإنتاج الموسع للحياة بدون أن يدخل في تناقض عدائي مع الحياة نفسها. وما دام الرأسمال و وسائل الإنتاج بيد الخواص، سيبحث بشكل غير عقلاني عن إعادة إنتاج موسعة لذاته و سينتج تعميما مضغوطا عليه لإعطاء قيمة للرأسمال عن طريق استعمال كل ما يوجد بأكثر ما يمكن للإتيان بإنتاج رأسمالي و استهلاك رأسمالي.

إن تحطيم لما هو طبيعي مسألة محتومة ولا مفر منها في ظل نمط إنتاج وظيفته الأساسية هي التراكم المشتت وغير المنظم بشكل منهجي، وعبر دورات تتعاظم باستمرار عن طريق رأسمال موحد أكثر وعنيف.

إن هذا ليظهر أن تحويل الواقع من طرف الإنتاج الرأسمالي قد وصل إلى بعد كوني، وأنه وصل إلى عتبة القطيعة. إنه يشوه كل ما هو موجود لإدخاله إلى السوق الرأسمالية.

إن التغييرات الجينية من أجل، ولأجل الصناعة (الحيوانات والنباتات) وخلق أسواق وتنويع أسواق خاصة (تغذية حلال للمسلمين، تغذية "كاشير" لليهود، سيميلي كارني ...) تدخل في هذا السياق.

إن نمط الإنتاج الرأسمالي يحاول بالملموس تغيير قاعدته المادية نفسها حتى يتلافى الوصول إلى حدوده الذاتية التاريخية، ومع ذلك يصل إلى تلك الحدود، لأن نمط الإنتاج الرأسمالي يدخل في تناقض مع قاعدته المادية الخاصة نفسها، هكذا، ومن أجل أن يفرض تطوره الخاص، يصبح الواقع تناقضا عدائيا للرأسمالية، فماذا سيفعل؟ ذلك هو السؤال.

إن التراكم الرأسمالي يجري بطريقة ملموسة، وسيرورة التراكم هاته، التي هي نفسها عن طريق الأزمة تنتج الأزمة، بل هي الأزمة نفسها. إنها الأزمة والهروب في الأزمة.

III - أزمة الرأسمالية وتكثيف الإنتاجية: دور الحيوانات في مواجهة الرأسمالية للانخفاض الميولي لمعدل الربح

عندما كانت الرأسمالية مزهوة بنفسها بعد انهيار أغلب التجارب الاشتراكية، كان الاشتراكيون الديموقراطيون الأعداء الألد للشيوعية، وأتباعهم من التحريفيين يقولون أن الرأسمالية هنا دائما، و زمن الأزمات قد ولى، و البورجوازية أصبحت ذكية، و أن الرأسمالية تعرف دائما كيف تتأقلم، تتغير و تتبدل ...

1 ـ فترة الاستقرار النسبي للرأسمالية أو ما يسمى ب "الثلاثون سنة المجيدة" (1945 – 1975)

بعد الحرب العالمية الثانية، تم العمل على إعادة بناء الدول الرأسمالية المتضررة من الحرب، وفي هذا السياق جاء ما يسمى ب "مشروع مارشال" الأمريكي لإعادة بناء أوروبا ومواجهة ما سمي بالمد الشيوعي، الذي تلا الانتصار التاريخي للاتحاد السوفياتي على النازية في حرب التحرير الوطنية الكبرى، والذي أعقبه كذلك، الانتصار المدوي للثورة الصينية.

لقد عرفت الرأسمالية بعد الحرب العالمية الثانية انتعاشا هاما، ساهمت فيه الاكتشافات التكنولوجية، وقد تولد عن ذلك ما أسماه المؤرخون البورجوازيون ب "المجتمع الاستهلاكي"، وقد وصل هذا التطور إلى ظهور الإعلاميات، التي ساهمت

بدورها في تحديث الرأسمالية والمجتمع الرأسمالي. وما يهمنا هنا، هو أن هذا التحديث التكنولوجي قد كان له أثر كبير على العمل، سيسمح بالزيادة في الجهاز الإنتاجي وفي الإنتاجية. إن هذا التحديث لم يوقف أزمة الرأسمالية، بل ساهم في تطوير إيقاع الدورة التراكمية للرأسمال.

ومن باب التذكير، فإن ما يحدد قيمة العمل هو مدته (بالمعنى الواسع)، درجة كثافته (كمية العمل المنجز بهذا القدر أو ذاك)، درجة إنتاجيته (كمية المواد المنتجة كبيرة بهذا القدر أو ذاك بالنسبة لنفس كمية العمل).

فعما يبحث الرأسماليون؟

إعطاء أكثر ما يمكن من قيمة، للقيمة – العمل ضمن الإنتاج مع تعويض العمل بأقل ما يمكن، إنه مبدأ الاستغلال المقنع، الذي تقوم الإيديولوجية البورجوازية السائدة بتمويهه.

وماذا عن الأزمة؟

إنها بالضبط، ترتبط بكون القيمة – العمل وسط الإنتاج تنخفض مع عملية التحديث المستمر للجهاز الإنتاجي، فينتج عن ذلك أنه، بقدر ما يقل عدد العمال في سيرورة الإنتاج، بقدر ما تقل سرقة الرأسماليين لفائض العمل، الذي ينتجه العمال.

فما معنى هذا؟

إن الأمر يتعلق بما يسمى ب "قانون الانخفاض الميولي لمعدل الربح"، ويشرح ماركس ذلك قائلا:

"إن تطور القوى المنتجة، و الارتفاع الذي يوافقها لمستوى التكوين العضوي للرأسمال، يسمح بأن تعمل كمية كبيرة أكثر فأكثر لوسائل الإنتاج بفضل كمية صغيرة أكثر فأكثر، فكل جزء مقسم من المنتج الإجمالي، كل بضاعة مأخوذة على حدى، أو أيضا، كل جزء محدد من الكتلة الإجمالية من البضائع المنتجة، تبتلع عملا حيا أقل، و تتضمن أقل عمل مجسد، سواء ضمن تآكل الر أسمال الثابت المستعمل، أو في المواد الأولية و المساعدة المستهلكة، فكل بضاعة خاصة تتضمن قدرا أقلا، سواء بالنسبة للعمل المجسد كوسائل إنتاج، أو كعمل جديد مضاف إلى الإنتاج" (الرأسمال، الكتاب الثاني، الفصل 13).

لقد اعتقد العديد من الاقتصاديين المبتذلين بالمعنى الواسع للعبارة، أن ماركس سقط في فخ الحديث عن الانخفاض الميولي لمعدل الربح، وذلك في كتابه "الرأسمال"، وبطبيعة الحال، فكتاب الرأسمال، إذا لم يكن كتاب فلسفة بالمعنى الضيق، فقد كان أعظم كتاب استعمل فيه ماركس الديالكتيك، ولذلك، عندما قدم ماركس قانون الانخفاض الميولي لمعدل الربح كقانون من قوانين الرأسمالية، تساءل بطريقة ديالكتيكية حتى يتمكن من شرح هذا القانون، قائلا:

"كيف يمكن تفسير أن هذا الانخفاض لم يكن أكثر أهمية، أو أكثر سرعة. كان لابد أن تلعب تأثيرات متناقضة دورها لمواجهة، وحذف تأثير القانون العام، وإعطائه طابع اتجاه فقط، ولذلك قمنا بوصف انخفاض معدل الربح العام بانخفاض ميولي" ("الرأسمال"، الكتاب الثالث، الفصل 14).

لقد قام ماركس بالتأكيد على أهم الأسباب والعناصر، التي تلعب دورا كابحا لهذا القانون، ومنها:

- الزيادة في درجة استغلال العمل

- تخفيض الأجر إلى أقل من قيمته

- تخفيض أثمنة عناصر الرأسمال الثابت

- فائض السكان النسبي

- التجارة الخارجية

- الزيادة في الرأسمال بالأسهم

يقوم ماركس بشرح درجة استغلال العمل على الشكل التالي:

"كل ما يدعم فائض القيمة النسبي عن طريق الإتقان في الأساليب فقط، كما هو الحال في الزراعة، وذلك بدون الزيادة في الرأسمال المستعمل، يكون له نفس الأثر.

هنا، الأمر صحيح، فالرأسمال الثابت المستعمل لا يرتفع مقارنة بالرأسمال المتحرك إذا كنا نعتبر هذا الأخير كإشارة على قوة العمل المستعملة، لكن، كتلة المنتج هي التي تزيد نسبة إلى قوة العمل المستعملة"

والسؤال المطروح هو:

هل يوجد منتج تكون كتلته قد زادت بشكل محسوس بتكلفة قليلة، يسمح بتكثيف رأسمالي للإنتاج خلال هذه الفترة من الاستقرار النسبي؟

هناك العديد من المنتجات، التي تجعل، حتى في الحالة التي يكون فيها عدد العمال أقل (بمعنى نقصان عدد فائض العمل المسروق) تستطيع الرأسمالية أن "تستدرك" بفضل تكثيف العمل، الذي يسمح بزيادة في معدل فائض القيمة المنتزع على حساب الطبقة العاملة.

لو أخذنا بعين الاعتبار العناصر الثلاث المحددة: المظهر الواسع، درجة الكثافة ودرجة الإنتاجية، فسنقدم الأمثلة التالية:

أ - المظهر الواسع:

هنا يتعلق الأمر بالتركيز على الاستعمال وليس على المصدر، وتوسيع قطعة الأرض مثال على ذلك. ونفس الشيء يمكن أن يقال عندما نتحدث عن استغلال الدول شبه المستعمرة وشبه الإقطاعية، عن طريق استغلال الفلاحين والعمال الزراعيين في هذه البلدان. فلو أخذنا الاتحاد الأوروبي كمثال، سنجده قد استورد مليونان ونصف طن من السكر، سنجد أن الدول التي صدرت السكر إلى الاتحاد الأوروبي هي 113 بلدا، بمعنى أنه تم استغلال 18 مليون من الفلاحين ومليون و 800 ألف من العمال الزراعيين. ولو استشهدنا بفرنسا 1826، سنجد أن استهلاك السكر لكل فرد كان لا يتجاوز كيلوغرامين، وإذا قارنا ذلك بسنة 2007 سنجد أن الرقم أصبح 35 كيلوغرام للفرد.

إذن، فخلاصة القول، أن الأزمة الصحية المتعلقة بالسكر مرتبطة أشد الارتباط بزيادة الربح الرأسمالي على حساب صحة الناس، كما أن السكر ساهم في زيادة عدد الطبقة العاملة، وينطبق قولنا هذا على كل مجالات الإنتاج الرأسمالي، ونفس الحال بالنسبة لإنتاج الأدوية والمواد الكيماوية ومواد التلفيف.

ب – درجة الكثافة:

هنا يتم اللعب على كمية العمل المنجز، الذي يزداد باستمرار، وهذا ما يفسر على أنه رغم تناقص العمال في فرنسا في الثلاثين سنة الأخيرة، فإن الانخفاض الميولي لمعدل الربح لم يكن مذهلا. فلماذا هذا الأمر؟ وماذا وقع؟

لقد استطاع الرأسماليون أن يحصلوا على نمو في معدل فائض القيمة بالشكل الذي يجعل قيمة عمل العمال تزداد، فاستفادوا من العوامل التالية:

- الأتمتة

-استعمال الروبوات

- الإعلاميات

- الزيادة في وتائر العمل

يقدم الرأسماليون هذه العناصر على أنها "عقلنة الإنتاج" أو ما يسمى ب "نهج الجودة". وقد استغل الرأسماليون المشاركة النشيطة للنقابات في المسلسل الإنتاجي، وعن طريقهم بدأت محاولات إدماج العمال في المشاريع الرأسمالية. وإذا نظرنا إلى تاريخ البلدان الرأسمالية خلال ما يسمى ب "الثلاثون المجيدة"، فإننا سنجده تاريخا متشابها، طبقة عاملة في أغلبيتها مؤطرة من طرف النقابات، لا تهتم بالثورات، بل فقط بالتدبير، ولذلك رفع الاشتراكيون الديموقراطيون والإصلاحيون شعار "التسيير

الذاتي" للمؤسسات، وكذلك شعار "التسيير المشترك " لها، فقد اختفت مسألة السلطة وراء مسألة تنظيم العمل. هكذا إذن، تباطأ الانخفاض الميولي لمعدل الربح عن طريق الزيادة في كثافة العمل.

ج - درجة الإنتاجية:

هنا يتم الدمج بين المظهر الواسع ودرجة الكثافة، فكيف يتم ذلك؟

إن هدف الرأسماليين هو العمل بالشكل الذي يجعل ممكنا إنتاج أكبر كمية من المنتجات بنفس العمل المستعمل.

بشكل عادي، فمسألة المواد الأولية هي مسألة بسيطة، فعندما يكون عندنا كلغ من القمح، فلدينا كلغ من القمح، فبإمكاننا أن نلعب على مسألة المظهر الواسع وندفع في اتجاه أن يكون القمح مستعملا بشكل أكثر كما رأينا في حالة السكر، لكننا لا نستطيع أن نحول كلغ من القمح إلى العديد من كيلوغرامات القمح.

إن هذا الأمر موجود بالفعل، كنشاط تجاري، عندما مثلا نعوض مادة بأخرى أقل ثمنا (السكر كمثال) وذلك للعب على الهوامش، إن هذا الأمر المنتشر لا يمكنه أن ينطبق على مجموع السيرورة من جهة طابعه الهامشي أو القطاعي.

هنا، يتحرك الرأسماليون لإيجاد مادة أولية، وبفضل تقنيات عقلنة الإنتاج (الفوردية، التايلورية) تتضاعف كما لو في عملية سحرية، لقد وجدوا الدجاجة التي تبيض ذهبا، ويتعلق الأمر باستغلال الحيوانات. فإذا كان كلغ من القمح و كلغ آخر لا يأتيان بثلاثة كيلوغرامات، فالأمر مختلف بالنسبة للحيوانات، و من هنا تعميم استغلال الحيوانات في الصناعة.

د – تعميم استغلال الحيوانات في الصناعة

إنه لملفت للنظر هذا العدد الكبير من المجازر الصناعية، حيث كثافة العمل كبيرة ومدمجة مع إنتاجية في تصاعد مستمر. ومن جهة أخرى هناك اتساع في استعمال الحيوانات خارج مجال التغذية بالنسبة لكل الصناعة (الطحين الحيواني، الزيوت للآلات، أشرطة التصوير ...).

لنرى بالأمثلة:

في سنة 2000 كان هناك في فرنسا 339 مجزرة، ثلثها ينتج ثلثي الإنتاج.

بين 1990 و 2000 كان العدد قد انخفض بنسبة 30% نتيجة التمركز الاحتكاري، وبين 1980 و 2000 هناك مرتين أقل للمجازر، لكن زيادة في الإنتاج ب 10%.

هناك مثال على تدبير الإنتاجية من طرف الرأسماليين، فبين 1990 و 2007، فإن الاستهلاك العالمي للحوم بكل أنواعها قد انتقل من 143 مليون طن إلى 271 مليون طن.

بالنسبة لأوروبا، ففي القرن 19 كان الاستهلاك الفردي السنوي أقل من 20 كلغ، وفي 1920 انتقل إلى 30 كلغ، وسنة 1960 أصبح 50 كلغ، وفي سنة 2008 أصبح 100 كلغ في السنة. وبالنسبة لفرنسا، أصبح 107 كلغ في السنة، و 136 كلغ بالنسبة لإسبانيا، و 107 كلغ بالنسبة لبلجيكا، و 93 كلغ بالنسبة لإيطاليا، و 88 كلغ بالنسبة لألمانيا.

إن هذا اختيار بالنسبة للرأسماليين، لكنه ليس اختيارا اجتماعيا، فحجة الرأسماليين حول ارتفاع مستوى العيش لا تعمل. فبالنسبة للبروتينات الصحية كما يقولون، فهناك تزايد في السمنة وأمراض القلب والشرايين ومختلف السرطانات التي يتسبب فيها اللحم، إضافة إلى الجانب الصحي المرتبط بطبيعة الإنتاج (الملوث).

هناك أشكال أخرى للزيادة في درجة الإنتاجية، كاستعمال الدقيق الحيواني وإنتاج اللحوم المركبة (لحم مختلط مع تركيب من الماء والفوسفاط ومنتجات لها "فرمولة سرية") إنها أسباب المشاكل الصحية التي لا تعد.

وبالنسبة للجانب الإيكولوجي نرى أن تربية المواشي والحيوانات عموما، وإنتاج المواد المركزة من أجل التربية، تحتكر 78% من الأراضي الزراعية العالمية، والمشكل أن أغلب نفاياتها غير قابلة للامتصاص، ويرى الاختصاصيون أن الإنتاج من اللحوم بالنسبة ل 2050 سيصل إلى 465مليون طن.

إن هذه الأرقام تظهر بشكل جلي أن الأمر متعلق بتكثيف مدبر للإنتاج من طرف الرأسماليين وذلك في سياق معركتهم من أجل الربح، وإن هذا ليعتبر أحد المشاكل التي تعتبر جزءا من التناقضات الداخلية للرأسمالية، ويعد هذا اتجاه عام لن يتوقف أبدا، بحثا عن الربح، ومن أجل الربح.

إن الحلول من أجل التقليل من سرعة فعل قانون الانخفاض الميولي لمعدل الربح، ستجعله يتزايد على المدى البعيد. إن النمو القوي للرأسمال يصطدم بالتناقضات التي لا حل لها، والتي تعتمل داخله. إن الرأسمال لا يستعمل الإنتاج إلا من أجل أن يكبر، وأن يزيد في قيمته، إنها نقطة انطلاقه ونقطة نهايته.

إن الزيادة في قيمة الرأسمال، تمر بالضرورة عبر التطور غير المشروط للإنتاجية الاجتماعية، تواجه الطبقة العاملة، الطبقة الأكثر استغلالا في نمط الإنتاج الرأسمالي، والحيوانات، وفي إطار الصناعة الرأسمالية فالحيوانات ليست "مستغلة"، ولكنها مستعملة، ولا تشكل طبقة اجتماعية، بل فئة مضطهدة.

إن الوهم الذي يحمله الرأسماليون، والذي يعتقدون من خلاله أن الربح الذي يحققونه في مجال الإنتاجية بإمكانه أن يقلص من حجم الطبقة العاملة في إطار السيرورة الإنتاجية، هو خطأ قاتل، و وزنه ثقيل بالنسبة للرأسماليين.

2 ـ ردود فعل بعض قوى ومجموعات اليسار عبر العالم تجاه كوفيد

إن إطلالة سريعة على بعض المواقف الصادرة من منظمات وقوى يسارية، ذات تلاوين إيديولوجية مختلفة، تظهر أن هاته الأخيرة تتعامل مع الموضوع كما لو أن الأزمة الصحية الناتجة عن كورونا لا علاقة لها بالصراع الطبقي، ولا بنمط الإنتاج الرأسمالي، ولذلك نجد بعض هذه المنظمات قد أدان سياسة الحجر الصحي باعتبارها ممارسة قروسطوية، وتحت غطاء إيديولوجي تظهر الأزمة كمؤامرة إمبريالية تستغل الأزمة القائمة، وعلى هذا الأساس يتم رفضها وإدانتها، و نكاد نجد حتى بالنسبة لفترات الأزمة المختلفة 1990 – 1993، 1998 – 2002، 2008 – 2009، خطابا يستمد عناصره من نظرية المؤامرة، ومن ثمة فراغ هذا الخطاب من أي تحليل ملموس و موضوعي.

من جهة أخرى، اهتم التحريفيون بجوانب مختلفة من السياسات المرتبكة لحكومات اليمين في بلدانهم مؤكدين على أهمية التخطيط لمواجهة انتشار الوباء، كل هذا في إطار سياسات إصلاحية تتوخى الترقيع من داخل المنظومة الرأسمالية.

لقد بينا في الفصول السابقة، أن كوفيد 19 ليس وباء أتى من خارج نمط الإنتاج الرأسمالي، ذلك أن التناقض بين المدن والبوادي، الذي يتسع باستمرار مع تعمق نمط الإنتاج الرأسمالي يؤدي إلى أوضاع، أو إلى قطائع نوعية تتم في مجال الطبيعة كما هو الحال مع كوفيد 19، حيث هناك تحول لفيروس، وليس انبثاق لفيروس، انطلاقا من حيوانات كانت في السابق بعيدة عنا.

إن الأزمة الصحية ترتبط بالدولة، ونعلم جميعا أن الدولة هي تكثيف لعلاقات القوى بين الطبقات داخل مجتمع محدد، وبالنظر إلى واقعنا الحالي، يمكن الحديث عن دولة في حالة إفلاس تحت تأثير ما يسمى بالنيوليبيرالية وهيمنة الفئات الأكثر رجعية داخل الرأسمال، أو الفئات الكمبرادورية في البلدان التابعة.

إن الأزمة الصحية التي انفجرت مع انتشار كوفيد 19، تخضع بدورها لقانون التطور غير المتكافئ على الصعيد العالمي، الشيء الذي تثبته الحالات المختلفة للدول، فرنسا، بلجيكا، إيطاليا، إسبانيا، ألمانيا، الولايات المتحدة، الصين ...

إن الدولة جهاز قمع وهيئة اجتماعية، والأزمة الصحية هي بطبيعتها ذات طابع سياسي، تعكس أزمة الدولة، وفي نفس الوقت، تعمق أزمة نمط الإنتاج الرأسمالي.

عموما، فإن المظهر الرئيسي لأزمة صحية، يتمثل أساسا في مسألة الوسائل، ونعني، القدرات المادية للبنيات الصحية والبشرية، وارتباطها بالاختيارات والقرارات والتوجهات، وبمعنى آخر، ترتبط الأزمة الصحية بالوسائل المادية للقطاع الصحي، وبالقدرة على استباق الأزمة عن طريق توفير خطط جوابية عنها، وكذلك تنظيم القطاعات عن طريق القرارات ذات الصلة.

ولعلنا نتذكر وزيرة الصحة الفرنسية السابقة في حكومة ماكرون آنييس بوزين، التي قدمت شرحا يوم 24يناير 2020 قالت فيه أن "خطر استيراد كوفيد 19 انطلاقا من ووهان هو في الحقيقة منعدم" "إن خطر الانتشار ضعيف جدا".

ولعلنا كذلك نتذكر ذهاب الرئيس الفرنسي إلى المسرح لحث الفرنسيين على الخروج (مارس 2020، حسب ب ف م تيفي).

ولعل القارئ يدرك، أنه منذ ذلك الوقت جرت مياه كثيرة تحت الجسر (جسر نهر السين! حتى لا نضيف أي تعليق).

IV -كورونا فيروس ضد الرأسمالية

عندما انتشرت انفلوانزا موسمية في فرنسا سنة 2018 قتلت 12500 شخص، هذا العدد قوبل باللامبالاة، لكن الأمر سيتغير في كل بلدان العالم مع انتشار كوفيد 19، حيث بدا مفعول الانتشار واضحا، من خلال زعزعة الأسواق الرأسمالية وانهيار البورصات، وكذلك انهيار أسعار البترول وانخفاض الإنتاج العالمي وركود الاقتصاد، وبدت كذلك النتائج من خلال تراجع النمو وانحصار الاقتصاد وتباطؤ قوى الإنتاج.

بالمقابل، تولد عن انتشار كوفيد 19 مجموعة من النتائج الإيجابية، من بينها، كسر الروتين اليومي (مترو – بولو – كونسومسيون)، بطالة تقنية، انخفاض الغازات المسببة للاحتباس الحراري، وبالتالي للتلوث، تطور أشكال جديدة للعمل (العمل عن بعد) مقتصدة للوقت الذي كان يأخذه مشكل التنقل، انتشار الأسئلة حول ما يتبقى للناس من وقت يومي خارج العمل، كما كثر التساؤل حول حالة العلاقات الداخلية في الدائرة الخاصة (العائلة) ومع الجيران، وكذلك حول وسائل الترفيه في المجتمع الاستهلاكي من أجل ملء الفراغ، وعدم مواجهة الواقع ... إنها أسئلة كان قد طواها زمن المجتمع الاستهلاكي

وتدخل فيما يمكن أن نسميه بالاستيلاب الرأسمالي. إنها أسئلة عادت إلى الحياة، لأن الناس تحرروا من إكراهات العمل الشاق، وما يرتبط بذلك من التزامات، إضافة إلى وسائل الترفيه المبلدة والتافهة، فقد شكل الحجر الصحي استعادة لاستعمال الزمن، وإعادة اكتشاف جوهر الحياة طالما طمسته العلاقات الرأسمالية القائمة على الربح والاستهلاك، ونفس الشيء يمكن أن يقال عن النشاط النضالي، من حيث انطراح الأسئلة حول الأشكال النضالية التي أصبحت مجرد طقوس وشعائر فارغة من الحياة، وإعادة التفكير في إبداع أشكال جديدة للنضال والاستعداد لمرحلة ما بعد كورونا حتى لا تؤدي الجماهير والشعوب ثمن الأزمة المالية وشلل الجهاز الإنتاجي المسبب لتراجع النمو والجمود الاقتصادي.

في ظل اقتصاد العولمة الامبريالي هناك ما نسميه الآن "تأثير الفراشة"، فعندما يعطس الصينيون يتوقف قطاع كامل لصناعة السيارات في فرنسا.

إن انحصار الاقتصاد خارج كل حركة اجتماعية، يولد "تأثير الركود" الجماعي.

لقد أظهرت التجربة المعاشة لحد الآن في الصين وفي أوروبا، باستثناء بريطانيا والسويد، أن مراقبة الناس في وضع تحت الإقامة الجبرية، واستعمال تكنولوجيا متطورة في مجال البولسة ومراقبة الناس، يشكل تمرينا عاما حول مراقبة الجماهير بالإمكان نمذجته في ظروف أخرى خارج الأزمة الصحية (تطبيقات الأندرويد).

إن وسائل الإعلام تلعب اللعبة بنشرها للخوف، بحيث يسير ذلك بسرعة تفوق سرعة انتشار الفيروس، وذلك عبر ترويع الناس وزرع الرعب وقطع قنوات الاتصال بينهم، وذلك بترسيخ الانكفاء على الذات والتباعد الاجتماعي. إن هذه العناصر تشكل حليفا للنظام القائم، لأنها تساهم في خدمة تحكمه الدكتاتوري المفروض على الناس.

٧ - إيبولا: الاحتباس الحراري، اجتثاث الغابات وفشل السوق

لقد تم عزل فيروس إيبولا لأول مرة سنة 1976، وذلك في جمهورية الكونغو الديموقراطية. ومنذ 1994، بدأ يتطور على شكل أوبئة صغيرة سنويا وسط جماعات قروية معزولة تعيش في الغابات. وفي سنة 2014، في الحدود بين ليبيريا وغينيا وسيراليون على بعد 3000 كلم من الكونغو، تطور وباء جديد بوجه مختلف حول غيكيدو وجبل نيمبا، ويظهر أن نوعا من الخفافيش تتغذى على الفواكه، هي الخزان الطبيعي لفيروس إيبولا. والسؤال المطروح، هو كيف انتقلت الخفافيش الحاملة لإيبولا إلى إفريقيا الغربية؟

إن الاحتباس الحراري ومواسم الجفاف وحرائق الغابات ساعدت على هجرة الخفافيش الموبوءة نحو إفريقيا الغربية. وفي منطقة جبل نيمبا كل شيء يدفع الناس نحو الخفافيش والعكس صحيح. ومن المعلوم أن الشركات المتعددة الجنسيات، نظمت، وخاضت حروبا مسلحة في ليبريا، وهو ما يسمى بالحرب الأهلية الليبيرية مما دفع الآلاف من الناس إلى اللجوء إلى الغابات هروبا من المجازر، وكذلك بحثا عما يأكلونه من لحوم الأدغال، وكذلك التسرب إلى أعماق الغابات من أجل الحفر واكتشاف المعادن النادرة، وخاصة الماس، وذلك يساهم في تمويل أسياد الحرب، اللذين يبيعونها إلى الشركات الدولية الكبرى. وقد تعرضت غينيا إلى اجتثاث كبير لغاباتها من طرف الشركات الكبرى الباحثة عن الخشب الرفيع، وكذلك، وبالأساس عن

طريق إدخال الزراعة الوحيدة، نخيل الجوز، وهو مادة تصدر تغتني بها النخب الحاكمة وتستنزف أرباحها من طرف الشركات الكبرى.

في ظل هذه الأوضاع، أصبحت الخفافيش مطاردة في مواقعها الطبيعية، فوجدت مصدر إقامة جديد، يتمثل في أشجار نخيل الجوز على مسافة قريبة من البشر، ليتم انتقال الإيبولا إليهم.

وفي نفس الوقت تابع فيروس إيبولا تطوره، فمن وباء قروي محدود سيصبح وباء مدينيا، ذلك أنه في غضون بضع سنوات انتقلت تلك المدينة الصغيرة في منطقتها، ونعني غيكيدو، من 2800 إلى 300000 نسمة، حتى أنها أصبحت ثالث مدينة في البلاد. لقد تطورت الحمى النزيفية خلال أربعة أشهر دون أن يتم رصدها، ذلك أن مصالح الصحة كانت غائبة، والدولة بكاملها في يد المهربين عبر الحدود، وفي يد الشركات الكبرى. ومن هنا انتقل الوباء إلى البلدان المجاورة مهددا بتطور على الصعيد العالمي. وعندما حاولت نائبة المديرة العامة لمنظمة الصحة العالمية تبرير عدم اهتمام المنظمة خلال أربعين سنة بفيروس إيبولا، قالت أن حمى إيبولا "نمطيا، هي مرض للفقراء في بلدان فقيرة، حيث لا توجد سوق لشركات الأدوية (...) إنه فشل مجتمع يقوم على السوق، سوق المال و الأرباح".

VI ـ 1N1H : انبثاق جائحة فيروسية في المعامل الرأسمالية العملاقة الخاصة بالخنازير

لقد كانت أنظار منظمة الصحة العالمية تتجه إلى الصين المدارية، حيث المناخ حار ورطب وأراضي واسعة، حيث الطيور والخنازير والبشر في احتكاك دائم، مما يولد الأنفلوانزا الموسمية السنوية، كما كانت الأنظار تتوجه إلى احتمالات ظهور أنفلونزا جديدة من نوع 1918، المسماة الأنفلوانزا الإسبانية، لكن المفاجأة جاءت من مكان آخر.

في أبريل 2009، ومن مكسيكو أطلقت منظمة الصحة العالمية إنذارها ضد فيروس جديد للأنفلوانزا : 1N1H، الفيروس الذي قتل مئات الأشخاص في العاصمة المكسيكية، فماذا وجدت المنظمة؟

ففي قلب قرية دي لا غلوريا، المجاورة لمجموعة من المعامل الضخمة الخاصة بالخنازير المسماة "ديغرانخاص كارول دي مكسيكو"، التي تمتلكها شركة سميثفييلد فودز، أول منتج عالمي للخنازير، سيعزل لأول مرة هذا الفيروس، وذلك عند مصاب عمره أربع سنوات يسمى إدغار هرنانديز. وسيقوم الفيروس بجولة عبر العالم، عبر طائرات العولمة.

منذ سنوات، والسكان الفقراء ل "دي لا غلوريا"، وهم يتظاهرون في مدينة مكسيكو ضد انتزاع أراضيهم وضد الخزانات الضخمة لمادة البيران، التي تلوث الهواء والماء في قريتهم، فهياكل الخنازير تطفو وسط روث الخنازير، وهذا ثمن إنتاج أكثر من مليون خنزير في السنة.

إن مئات الآلاف من الخنازير ذات التكوين الجيني المتشابه، المكدسة منذ سنوات بدون مراقبة إيبيديميولوجية فعلية، والمشحونة بالمضادات الحيوية، وذلك خدمة لمزيد من الأرباح، كل هذا حول الأكروبيزنيس إلى حاضنة عملاقة تعزز مخاطر إعادة التكون الفيروسي، تماما كما يقدمه السيناريو الأسود للأنفلوانزا الإسبانية.

VII - زيكا، أو عولمة البعوض sedea وغياب المصالح العمومية

لقد تم عزل هذا الفيروس لأول مرة سنة 1947، وانتشر تدريجيا في آسيا عبر أوبئة صغيرة محدودة، لكن العولمة الليبرالية ستجعل من الممكن التقاء وسريع، كما حصل في كأس العالم لكرة القدم في البرازيل سنة 2014، ملايين المسافرين عبر الجو، بعضهم يحمل فيروس زيكا، ليصل إلى ساكنة محلية بدون مناعة ضد فيروس لم يسبق لها أن احتكت به. فالفافيلات البرازيلية، حيث المياه الراكدة، وحيث تتجمع هياكل من مختلف الأنواع (هياكل السيارات هياكل الحيوانات ...) والأزبال المتروكة لحالها، كل ذلك يشكل بيئة صالحة لتطور بعوض زيكا، ومن ثمة انتشاره الكبير في أمريكا اللاتينية.

أما حالة البرازيل، مركز الوباء، فتتميز بكون 58% فقط من الأسر تتوفر على قنوات الصرف الصحي، وفقط 49% تستفيد من خدمات جمع الأزبال، والعديد من الأسر تعاني من انقطاع الماء مما يدفعهم إلى تخزين الماء في أحواض كبيرة، وبطبيعة الحال تكون الفئات الأكثر فقرا هي الأكثر إصابة بالفيروس.

VII - المسألة الصحية في الدول التابعة بين التقويم الهيكلي وإحسانية الرأسمالية

في مارس 1990، ومن أجل إدانة والتنديد بكون "93% من مرضى السيدا لا يتوفرون إلا على 6،4% من كل ميزانيات العلاج، ومن كون المرضى يوجدون في دول الجنوب والعلاج في دول الشمال" قدم جوناثان مان مدير البرنامج العالمي للنضال ضد السيدا التابع لمنظمة الصحة العالمية استقالته محدثا ضجة عالمية.

وفي الحقيقة، يمكن القول أن دول "العالم الثالث"، و من أجل تأدية ديونها فرض عليها التقليص من النفقات الاجتماعية (التعليم، الصحة...)، ففي مابين 1980 و 1990 وحسب أرقام البنك الدولي، فقد قامت هذه الدول بتخفيض ميزانيات الصحة بنسبة 50%. ومن المفارقات، نجد أنه في سنة 2012، خرج ما مجموعه من الأرباح من إفريقيا نحو خزائن "الدول الغنية" بما يقدر ب 5% من الناتج الوطني الإجمالي الإفريقي مقابل 1% مما تم التوصل به من مساعدات عمومية للتطور، فالحقيقة، هي أن إفريقيا تساعد العالم، هذه القارة التي تعاني من التخريب الكبير للصحة، ويكفي إعطاء الأرقام التالية:

في ليبيريا، حيث انتشر فيروس إيبولا لا يتوفر للبلد كله سوى خمسون طبيبا لساكنة تعد بأربعة ملايين نسمة، وبالنسبة لسيراليون فالعدد يصل إلى 120 طبيبا، ومعلوم أن منظمة الصحة العالمية، التي أصبحت لعبة في يد الدول الكبرى تعرف صراعات وتناقضات كثيرة داخلها، بل وتهديدات بعض الدول مثل الولايات المتحدة الأمريكية، وتدور تلك الخلافات حول ضرورة تقليص ميزانية منظمة الصحة العالمية باستمرار.

إن هذا التقشف مرتبط بإعادة هيكلة منظمة الصحة العالمية استجابة لاختيارات وتمويلات المانحين، مما يتولد عنه زيادة ب 20% في ميزانيات الأمراض غير المعدية مثل السرطان والسكري وأمراض الشرايين، وهي أمراض لها أسواقها الكبيرة، وبالمقابل نجد انخفاضا بنسبة 50% من ميزانيات قطاع التدخل لمواجه الأوبئة والأزمات الصحية الكبيرة، وهذا ما دفع رئيسة "أطباء بلا حدود" بأن تدين من منبر الأمم المتحدة ما أسمته ب "التحالف العالمي لعدم التدخل"، وذلك بارتباط مع انتشار إيبولا.

ومن الأمثلة المدينة لمنظمة الصحة العالمية، نجد فيما يخص إيبولا، أن تلك المنظمة تأخرت جدا في التعبئة ضد الفيروس، بل اتفقت مع المختبر KSG بعدم تطوير اللقاح المرشح لمواجهة الفيروس وذلك في بداية انتشاره.

وبالنسبة ل 1N1H، وخاصة في سنة 2009، حيث انتشر هذا الوباء، فقد اتهمت "الجريدة الطبية البريطانية" منظمة الصحة العالمية بأنها شجعت الشركات الكبرى للتلقيح بدفعها، وبكثافة، للدول الغنية للاستثمار في شراء ملايين جرعات التلقيح.

ومن أمثلة التبعية والخضوع للمصالح الحيوية الأمريكية حول ما يسمى بالصحة الشاملة من طرف منظمة الصحة العالمية، ما أطلق عليه اسم "غلوبال هيلث"، وهو برنامج اعتمد على تمويلات البنك العالمي و بيل ومليندا غيتس، وتقدر ميزانيته ب 5 ملايين دولار، إلا أن البرنامج باء بالفشل.

بالنسبة ل "دول الجنوب"، فإن التروستات الكبيرة للصيدلة واللقاح ترفض أن تستثمر في البحث بالنسبة للباطولوجيا (علم الأمراض) في الجنوب، مختبئة وراء براءات الاختراع لرفض الأدوية بالنسبة لدول الجنوب، الشيء الذي جعل أصواتا كثيرة

ترتفع من أناس ذوي نيات حسنة تدعو إلى جعل اللقاحات والأدوية ملكا عاما للبشرية، ومن ثمة، نزع ملكيات شركات الأدوية و وضعها تحت مراقبة عمومية، تتشكل من علماء ومهنيين مستقلين ونقابات وجمعيات المرضى والمستعملين.

وبغض النظر عن طبيعة هذه المواقف، فالصحة للجميع حسب هذه الأطروحات لا يمكنها أن تقوم إلا على التنمية المستدامة والتغذية للجميع والتكوين والتربية والوقاية والولوج الكوني إلى الماء الصالح للشرب والخدمات العمومية وتطوير أوضاع النساء والأقليات، والرفع من قدرة الشعوب في مواجهة الفقر والمرض، وخارج تصريحات الحكومات، تصبح صحة سكان العالم ذات أولوية قبل ربح التروستات وتقشف الدول.

هناك أصوات كثيرة ترتفع للمطالبة بالعودة إلى "دولة الرفاه"، بمعنى آخر، اعتماد كنزية جديدة تعالج القضايا الاقتصادية والاجتماعية مع إعادة الاعتبار للديموقراطية ومصالحتها مع البعد الاجتماعي من خلال دور دولة الرفاه، التي تنزل بثقلها على قوانين السوق، وتوجيه الاقتصاد في اتجاه الأخذ بعين الاعتبار الحقوق الاقتصادية والاجتماعية والثقافية للسكان.

إن هذا الاتجاه الاشتراكي الديموقراطي ذي الطبيعة الإصلاحية، ينم عن مجموعة من الأوهام حول إمكانية إصلاح الرأسمالية، ويعرف مجموعة من الاتجاهات أصبح بعضها يتجذر بالتدريج دون أن يرقى إلى مشروع اشتراكي ثوري يستهدف وضع حد للنظام الرأسمالي بشكل جذري، ولذلك نجد مجموعة من المطالب لهذا الاتجاه، الذي يرى هو الآخر أن الأزمة الصحية جزء من الأزمة الإيكولوجية، فمع الأزمة المناخية، وندرة الموارد غير المتجددة، وانهيار التنوع البيئي، ومن أجل مواجهة هذه الأوضاع يجب مراجعة النموذج الاجتماعي، مع المزيد من إعادة توطين الصناعات و "المضيافية" والقرب، وتقليص وسائل النقل وكذلك التمركز السكاني مع أكثر ما يمكن من المساواة الترابية، مع استثمار أكبر في الصحة البيئية والعمومية.

IX -من أوبئة الرأسمالية بشكل عام إلى أوبئة ما يسمى بالنيوليبيرالية

أدلى العالم البيولوجي الكبير الماركسي روبرت. ج. والاس باستجواب مؤرخ ب 13 مارس 2020، قال فيه "أن كوفيد 19 ليس حادثة معزولة، فازدياد الفيروسات مرتبط بالإنتاج الغذائي ومردودية الشركات المتعددة الجنسيات، فكل من يريد أن يفهم لماذا أصبحت الفيروسات أكثر خطورة عليه أن يدرس النموذج الصناعي للفلاحة، وبالأخص تربية المواشي".

ويتحدث العالم البيولوجي عن الاستحواذ على الغابات العذراء والأراضي الزراعية التي يمتلكها صغار الفلاحين.

"ففي الوقت الحالي، فكوكب الأرض في الجزء الكبير منه أصبح مزرعة عالمية، سواء بمعنى الكتلة الحيوية أو تعلق الأمر بالأراضي المزروعة. يهدف الأكروبزنيس الاستحواذ على السوق الغذائية والمشروع المسمى نيوليبيرالي منظم على أساس دعم مجهودات الشركات القائمة في الدول الصناعية الأكثر تقدما، من أجل سرقة الأراضي وموارد البلدان الأكثر فقرا، وبالتالي، فإن العديد من العوامل المسببة للمرض، التي تم احتواؤها لحد الآن عن طريق الغابات، أصبحت تتطور الآن باستمرار، بل تحررت وأصبحت تهدد العالم بكامله".

(انظر "المزارع الكبرى تصنع الزكام الكبير: إشعار حول مرض الالتهابات، أكروبيزنيس وطبيعة العلم (مونثلي ريفيو بريس 2016)).

في كتابه الشهير هذا، ميز العالم البيولوجي الأمريكي ج. والاس نوعان من الأوبئة:

- تلك التي تجد أصلها في الإنتاج الأكرو إيكونوميك.

- تلك التي تأتي من المناطق النائية بالنسبة للإنتاج والتي تشكلها الغابات.

وعبر مثال 1N5H، أنفلوانزا الطيور، نجد واضحا، تلك العوامل الاجتماعية والجغرافية، التي تساعد على ظهور الفيروسات وانتشارها:

الانتشار داخل دول "العالم الثالث" لوحدات الإنتاج الزراعي – الصناعي، بدون أي قوانين منظمة، ملتصقة بمدن القصدير في الضواحي، هنا، انتشار فيروسات مرتبطة بوجود هذه الوحدات الإنتاجية في مناطق هشة، مع تزايد التنوع الجيني الذي يسمح لأنفلوانزا الطيور بتطوير مميزات خاصة بالإنسان، وهناك انتشار عالمي لفيروس أنفلوانزا الطيور بسرعة كبيرة في اتصال مع نوعية، ما فتئت تكبر أكثر فأكثر، لبيئات اجتماعية إيكولوجية ذات علاقة بأنماط تربية الطيور، وبالإجراءات الخاصة بالصحة.

إن قنوات التنقل العالمي للبضائع والهجرات المنتظمة لليد العاملة، تسمح للفيروسات بأن تتحول بسرعة لتظهر أنواع جديدة الأكثر منها قدرة على التأقلم متجاوزة الأخريات.

ويشير روبرت. ج. والاس إلى:

"أن غياب سلالات متوطنة مسببة للأمراض بشكل كبير (الأنفلوانزا) في مجموعات الطيور البرية، الخزان الأخير تقريبا لكل متفرعات هذا النوع (روبرت ج. والاس، المرجع السابق ص، 56)، بخلاف ما نلاحظ عند المجموعات الأليفة المجمعة في المزارع الصناعية، التي فقدت، من خلال الزراعات الوحيدة الجينية، عناصر المناعة القادرة على تبطيء الانتقال".

إن أطروحات والاس حول الارتباط بين الرأسمالية وصعود في كثافة الأمراض وحدتها، تصوره لنا أمثلة مختلفة:

المثال الأول:

ظهور ثلاث أوبئة في القرن الثامن عشر في البوادي الانجليزية، مع إدخال الزراعات الوحيدة في تغذية المواشي:

- من 1709 إلى 1720

- من 1742 إلى 1760

- من 1768 إلى 1786

في الحالات الثلاث، فإن أصل كل واحدة منها يعود إلى استيراد المواشي المصابة بأوبئة ما قبل الرأسمالية. وبسبب تمركز المواشي، في علاقة مع إدخال الإنتاج الرأسمالي، كان لاستيراد المواشي المصابة آثار مدمرة، خاصة في مراكز الحليب الكبيرة في لندن، التي وفرت بيئة مثالية لانتشار مكثف للفيروس.

المثال الثاني:

يتعلق بطاعون البقر في أوروبا، وكان ذا صلة مع نمو الزراعة على نطاق واسع (على مساحات كبيرة)، والتي تم تصديرها إلى إفريقيا سنوات التسعينات من القرن التاسع عشر بسبب الحروب الاستعمارية، التي تواجه فيها الاستعماريون من مختلف البلدان، فانتشر المرض في مجموعات البقر المحلية، فقضى على ما بين 80 و 90% من القطيع مسببا مجاعة غير مسبوقة في المجتمعات الرعوية جنوب الصحراء الكبرى. إن هذا الدمار كانت له نتائج قاتلة بالنسبة للسفانا، التي أصبحت، مع غزو الأشجار الشوكية، وسطا ملائما لانتشار ذبابة تسي تسي، التي كان من أسبابها الحد من دخول القطيع إلى أماكن الرعي، وكذلك إلى إعادة الإسكان في المنطقة بعد المجاعة، هذا في الوقت الذي كان فيه التوسع الاستعماري الأوروبي مستمرا.

المثال الثالث: حالة الانفلوانزا الإسبانية

حسب ولاس دائما، فإن هذا الوباء جاء من الخنازير أو الطيور المدجنة في كانساس. ففي الولايات المتحدة الأمريكية بعد 1914 – 1918، عرفت الزراعة الأمريكية تعميم الإنتاج الصناعي المستعمل للمكننة بشكل كبير (الفلاحة الكثيفة).

إن انتشار الأنفلوانزا الإسبانية كان بسبب التجارة العالمية، وبسبب الحرب الكبرى 1914 – 1918، ويعود سبب ارتفاع معدل الوفيات إلى العوامل الاجتماعية، كسوء التغذية والكثافة السكانية المرتفعة في المدن، ثم إلى غياب عناصر النظافة في المناطق المصابة.

(انظر برو روندیغ ج. ف، شونكس ج. د "ماذا جرى في الحقيقة خلال جائحة انفلوانزا 1918؟ أهمية الالتهابات البكتيرية الجانبية"، جريدة "أمراض الالتهابات مجلد 196، رقم 11، دجنبر 2007").

لقد رأينا ثلاث حالات من الفيروسات القاتلة ذات الصلة القوية بنمط الإنتاج الرأسمالي، أولها طاعون البقر، وهو نوع مرتبط بشكل واضح بالرأسمالية، ثم وجدنا الحالة الثانية لطاعون البقر، الذي انتشر في إفريقيا ابتداء من 1890، وقد ارتبط بالغزوات الاستعمارية، وأخيرا تطرقنا لحالة الأنفلوانزا الإسبانية المرتبطة هي الأخرى بالرأسمالية، والتي كانت لها نتائج مدمرة على الطبقة العاملة والساكنة الفقيرة.

إن كورونا فيروس ليست له خصوصية صينية، ذلك أن الأسباب التي تكون وراء انبثاق الأوبئة في يومنا هذا ليس لها شيء ذا صلة بالثقافة، كما يريد أن يقنعنا به بعض المعادين للأجانب، إن هذه الأمراض أو الأوبئة هي ذات علاقة بالجغرافيا الاقتصادية.

(انظر "العدوى الاجتماعية، الحرب الطبقية المكروبيولوجية في الصين" لصاحبها سانت كونسورس، 2 أبريل 2020).

الفلسفة

I - المادية البورجوازية وميزتها الأساسية:

سنعالج في هذا الجزء العديد من القضايا ذات الطبيعة الفلسفية تمس موضوع هذه الدراسة من جانبين مترابطين، جانب الفكر الفلسفي الذي تختبئ وراءه النظريات والمناهج العلمية البورجوازية، وجانب التطبيق العملي المؤدي إلى الكوارث المهددة للطبيعة وللإنسان. وذلك لتقديم السلاح العظيم الذي تقدمه الماركسية ـ اللينينية لمواجهة الرأسمالية وجرائمها المدمرة للإنسان والطبيعة وتمظهراتها المختلفة كالأزمة الصحية العالمية والأزمة الإيكولوجية العالمية، وذلك في سياق طرح وتوضيح المفهوم الماركسي ـ اللينيني لوحدة الإنسان والطبيعة المرتبط بالاشتراكية وصولا إلى الشيوعية.

في بدايتها كانت المادية البورجوازية إيديولوجية ثورية، لكنها ستتحول تدريجيا إلى براغماتية متطرفة ترفض الاعتراف بكرامة الواقع، ولا تعطي قيمة إلا للعرض العملي والإثبات. إن المادية البورجوازية تتصف بكونها محدودة وضيقة الفكر وميكانيكية، وسنأخذ مثالا من علم التشريح يظهر ضيق أفق الفكر المادي البورجوازي، وفي هذا الإطار تقول الأسطورة أن أحدهم قد قام بزيارة لديكارت وطلب من هذا الأخير أن يريه مكتبته، فأشار عليه برؤية عجل مفتوح.

إن هذا المثال ليعبر بشكل أساسي عن روح المادية البورجوازية، التي تعتبر أن كل شيء هو "أمامنا" ولا يمكن البحث عن شيء ما خارج ذلك. لقد شكل هذا الفكر في بدايتها تقدما هائلا فيما يخص فصل العلم عن الكنيسة وعن الدين، بمعنى آخر تقدما هائلا بالنسبة للميتافيزيقا والدين باعتباره نظاما مثاليا في التفكير. وفي نفس الوقت ستظهر هذه الطريقة طبيعتها المناهضة للعلم لأنها لا تعترف بكرامة الواقع، فإذا كانت المادية الجدلية تعترف بمبدأ القفزات النوعية، فالمادية البورجوازية لا ترى

الأشياء إلا بشكل براغماتي، ومن ثمة سنراها لن تقبل أبدا باعتبار أن التشريح هو ممارسة بربرية، ومن هنا لن تقبل بمبدأ القفزة النوعية، التي تغير وضعية الحيوان في نظر الإنسان، وكذلك لا تستطيع المادية البورجوازية أن تقبل بمفهوم الثورة، سواء على المستوى المادي أو على مستوى الأفكار، إن خطاطات فكرها تسير في خط مستقيم، وعندما يحصل عدم الانسجام تتكلم عن "فوضى" وعن الصدفة.

وبالعودة إلى المادية البورجوازية وإلى أحد أكبر وجوهها، ونتحدث هنا عن مالبرانش (نيكولا مالبرانش: فيلسوف فرنسي (1638- 1715) وعن نظريته حول "الحيوان – الآلة" فبالنسبة لمالبرانش، فالكلب الذي يصرخ من الألم ليس سوى صرير آلة ("في البحث عن الحقيقة")، ويقول مالبرانش:

"إنه لمن المؤكد أن أغلب أخطائنا يكون سببها الأول هذا التطبيق القوي للروح على ما تتوصل به عن طريق الحواس، وهاته اللامبالاة، حيث بالنسبة للأشياء، التي يمثلها الإدراك (الفهم) الخالص".

هناك إذن رفض للحواس لصالح الإدراك ولصالح العرض تماما كما هو الحال عند ديكارت الذي يبرر العرض بقوله التالي: إن الله قد خلق العالم ونستطيع إيجاد قوانين هذا الأخير عن طريق مبادئ "منطقية" خالصة.

وفي نقده لهذا الفهم يقول لينين:

"إن الممارسة تعلو على المعرفة (النظرية) لأنها تتوفر ليس فقط على كرامة ما هو عام، بل كذلك الواقع المباشر" ("إشارات حول علم المنطق"، هيجل).

إن لينين هنا يعطي قيمة لواقع الوجود في العالم، بينما المادية البورجوازية لا تعطي معنى إلا ل "الإدراك".

لقد قام البورجوازيون عن طريق المادية البورجوازية بتحوير الأطروحة الأولى من أطروحات كارل ماركس حول فيورباخ، وذلك لتحييدها. وبالفعل، فماركس في أطروحته الأولى حول فيورباخ شرح العيب الرئيسي للمادية البورجوازية، وبين كيف سمحت لمناهضي المادية، باعتبارهم نشطاء ونشيطين، يقول ماركس:

"إن العيب الرئيسي، حتى الآن لمادية كل الفلاسفة بما فيها فلسفة فيورباخ، هو أن الموضوع، الواقع، العالم المحسوس لا يتم التقاطه إلا في شكل أشياء أو حدس وليس كنشاط إنساني ملموس، وكممارسة، بطريقة غير ذاتية. وهذا ما يفسر لماذا المظهر النشيط قد تم تطويره من طرف المثالية في تعارض مع المادية، لكن فقط بشكل مجرد لأن المثالية لا تعرف بشكل طبيعي النشاط الواقعي الملموس باعتباره كذلك"

هناك مشكل في المقتطف (الذي ترجمناه عن الفرنسية)، فمن أين أتت عبارة "بطريقة غير ذاتية".

إذا كنا نعمل بطريقة ملموسة وليس في ذهننا، وإذا كان الأمر يتعلق بالممارسة، إذن فإن وعينا يتوجه نحو الممارسة، وهنا نقول ما معنى المجيء بعبارة "بطريقة غير ذاتية"، فالمقتطف بالألمانية جاء فيه ما يلي:

"nicht aber als sinnlich menschliche Tätigkeit, Praxis; nicht subjektiv"

وبالفرنسية:

« Et non pas en tant qu’activité sensorielle humaine, en tant que pratique, de manière subjective »

إن كلمة Nicht التي تعني النفي يتم تكرارها بالألمانية، لوضع موازنة، أو مقابل، ولا يتعلق الأمر بنفي تمت إضافته (كما تقوم بذلك التيارات التخريبية باسم "الماركسية" في ترجمتها لتلك الفقرة: " mais non en tant qu'activité humaine concrète, en tant que pratique, de façon non subjective")، فماركس يسطر بشكل واضح، جاعلا "بطريقة ذاتية" كمقابل لعبارة "باعتباره نشاطا إنسانيا حسيا"، باعتباره ممارسة.

كما أن استعمال "concret" بدل "sensoriel" (وهو ما قامت به كذلك ترجمات أخرى: " mais non en tant qu'activité humaine **concrète**, en tant que praxis, de façon subjective")، يعني تلاعبا من حجم كبير ضد فكر ماركس، والهدف منه إدماج ماركس في المادية البورجوازية، ويصل الأمر عبر هذا المحو لماركس إلى حد نفي انجلز، انجلز جدلية الطبيعة.

II – حول علوم الطبيعة والتفاؤل كهوية: وجهة نظر شيوعية

لقد وضع ماركس وانجلز مبادئ عامة من أجل فهم البيئة، ومجموع هذه المبادئ تشكل نظرية يطلق عليها "ديالكتيك الطبيعة".

إن الشيوعية والاشتراكية عند ماركس وانجلز مرتبطة أشد الارتباط بهذا التصور عن الطبيعة. والطبيعة يحكمها قانون عام كوني، إنه قانون التناقض، ومن هنا، فبدون ديالكتيك الطبيعة فإن الاشتراكية كما الشيوعية تفقدان طابعهما العلمي، لتصبح مجرد اختيار، وقد سقط التحريفيون بقيادة برنشتاين في هذا المنحى، فكان عليهم أن يبحثوا عن مبرر للاشتراكية فاضطروا إلى اللجوء إلى الكانطية، ليجعلوا من الاشتراكية اختيارا أخلاقيا، ولذلك سموا بالكانطيين الجدد.

إن عمق الاستراتيجية التحريفية قام على مشروع فصل ماركس عن انجلز، فتم وضع انجلز جانبا ليصبح ماركس إنسانويا يسهل التحكم في فكره وتحويره عن مضمونه الحقيقي، فغاب عن العديد، أن الماركسية لا تعادي الطبيعة ولا تتوخى التقدم باعتباره إنتاجوية، بل تحقيق العدالة والتقدم الإنساني في توازن وانسجام مع الطبيعة.

يقول جورج بوليتزر:

"إن فلاسفة القرن 18، لم يعنوا انتقاد مؤسسات الإقطاعية من وجهة نظر البورجوازية الصاعدة، لقد قاموا بنقدهم كما نرى باسم العقل. لم يكونوا يريدون أن يكونوا بشكل واضح أبطال طبقة اجتماعية، بل أبطالا لتحرر الإنسانية جمعاء. ولذلك تبنوا فكرة المجتمع القائم على العقل والدولة القائمة على العقل. ومع ذلك فالمجتمع الذي انبثق عن الثورة الفرنسية سيكون مجتمعا بورجوازيا. لقد كان ذلك تقدما هائلا في تاريخ الإنسانية، لكن ليس البورجوازية التي تحررت هي التي ستحرر معها الإنسانية جمعاء، المجتمع البورجوازي لا يمكنه أن يكون سوى آخر شكل تناحري للمجتمع، الذي لا يحقق إلغاء استغلال الإنسان للإنسان، ويحقق الشروط المادية والقوى البشرية، التي تجعل ممكنا القيام بهذا الفعل التاريخي عبر تحطيم الرأسمالية.

لهذه الأسباب، كان انجلز يقول إن ملكوت العقل الذي تحدث عنه فلاسفة القرن 18 كان، كما يثبته التاريخ مجرد "ملكوت" مبالغ فيه للبورجوازية" (جورج بوليتزر**).**

منذ القرن 19، ظهر للبشرية أن كل شيء له تاريخ: النظام الشمسي، الأرض، النبات، الحيوان، الإنسان (كل شيء يتحرك عير سيرورة ...). هكذا لم يعد ممكنا النظر إلى الطبيعة كآلة تدور حول نفسها. انطلاقا من هذه المكتسبات العلمية، لم تنبن مادية ماركس وانجلز فقط على تاريخ الإنسانية بشكل ضيق، تاريخ صراع الطبقات، بل انبنت على فهم صحيح للقانون

الكوني الذي يحكم العالم، ونعني بذلك قانون التناقض، قانون "الواحد ينشطر إلى اثنين"، وفي هذا السياق يقول ماو تسي تونغ:

"إن تاريخ الإنسانية هو حركة دائمة من ملكوت الضرورة إلى ملكوت الحرية. إن هذه السيرورة لا نهاية لها، ففي مجتمع لا زالت فيه الطبقات لا يمكن أن يكون لصراع الطبقات نهاية، كما أن الصراع بين الجديد والقديم، بين الصواب والخطأ في مجتمع لا طبقي سيستمر بلا نهاية، وفي مجال النضال من أجل الإنتاج، والتجريب العلمي لن تتوقف الإنسانية عن التقدم والطبيعة كذلك عن التطور، فلن يتوقفا عن ذلك عند مستوى محدد. كذلك الإنسان عليه دائما أن يقوم بحصيلة لتجربته، وأن يكتشف ويخترع ويبدع ويتقدم، فوجهات النظر المتأثرة بالجمود والتشاؤم والإحساس بالعجز والأنانية والادعاء خاطئة، ذلك أنها لا تتوافق مع الواقع التاريخي لتطور المجتمع الإنساني منذ حوالي مليون سنة، ولا يوافق كذلك الواقع التاريخي للطبيعة، التي نعرفها لحد الآن (وكمثال، الطبيعة كما يعكسها تاريخ الأجسام السماوية، الأرض، الحياة، وعلوم الطبيعة الأخرى)" ("في التناقض"، ماو تسي تونغ).

على هذا الأساس، ندرك قيمة الطبيعة المتفائلة للشيوعيين بسبب إدراكهم ووعيهم للقانون الكوني، الذي يمثله قانون التناقض، إضافة إلى هذا، وعيهم بالحياة وبالمادة في تحولها الأبدي.

إن الكوكب هو نفسه محيط حيوي خاضع لمجموعة من القوانين، يشكل كلا متكونا من المادة، التي تنتمي إليها كذلك الإنسانية، التي تشكل مادة مفكرة.

إن هذه المقدمة وهذا الاعتبار هو منطلق المادية الجدلية التي تناقض المادية الميكانيكية أو المادية البورجوازية. لقد قام روني ديكارت بتعميم مفهوم المادية الميكانيكية عندما قال قولته الشهيرة: "أنا أفكر إذن أنا موجود". إن هذا التصور قائم على إنكار كرامة الواقع، بينما المادية الجدلية لا تنكر هذا الواقع، بل تعتبر أننا جزءا منه.

إن البعد المادي لوجودنا هو المظهر الرئيسي، بينما الفكر ليس سوى التعبير عن الواقع المادي، ليس هناك شيء أبدي، فكل شيء حركة و "كل حركة هي نفسها تناقض" كما يقول انجلز.

أن تكون ماديا عليك أن تعتبر أن العالم ليس إلا مادة، وأن هذه المادة في حركة تخضع لقانون التناقض، يقول ماو:

"إن العالم ليس سوى تناقضات، ليس هناك مكان لا توجد فيه تناقضات، وليس هناك إنسان لا يمكن أن يكون موضوع تحليل، والاعتقاد بأن هناك شخص لا يمكن إخضاعه للتحليل هو وجهة نظر ميتافيزيقية. انظروا إلى داخل الذرة فإنها مملوءة بوحدات من التناقضات، فنواة الذرة والإلكترونات تشكلان وحدة لضدين. وفي داخل النواة تشكل البروتونات والنترونات كذلك وحدة ضدين، وكذلك حينما يتعلق الأمر بالبروتونات والبروتونات المضادة، والنترونات والنترونات المضادة، باختصار هناك وحدة الأضداد كلية الوجود" (ماو تسي تونغ "في التناقض").

III – الإنسان في المنظور الشيوعي:

من منظور الفلسفة الماركسية، فإن الإنسان هو نتاج الطبيعة، وفي نفس الوقت نتاج لنشاطه الخاص في الطبيعة عبر العمل، وخصوصية الإنسان الوحيدة هي تلك القدرة على بناء رؤية شمولية للكون ولقانونه العام، وكما يقول انجلز:

" فهم وعقل هذا التمييز الهيجلي، حيث ليس بعقلاني سوى الفكر الديالكتيكي، له معنى مدقق.

من الأشياء المشتركة مع الحيوان، أن هناك نشاط للفهم: استنتاج، استنباط، وبالتالي كذلك ممارسة التجريد (مفهوم النوع عند ديدو ، الكلب الذي كان يرافق انجلز) : ذوي القوائم الأربعة و ذوات القدمين، تحليل الأشياء المجهولة (فتكسير الجوز هو بداية لتحليل)، تعميم، وكوحدة بينهما، التجريب (في حالة عوائق جديدة وحالات مجهولة)، فحسب النوع فطرق العمل هاته أي كل وسائل البحث العلمي، التي يعترف بها المنطق العادي هي نفسها عند الكائن البشري والحيوانات الأكثر تطورا، وليس هناك اختلاف إلا من حيث درجة تطور كل طريقة معزولة. إن المميزات الأساسية للطريقة هي نفسها، وتأتي بنفس الشيء عند الإنسان وعند الحيوان، ما دام كلاهما يشتغل أو يبحث عن مخرج لنفسه بهذه الطرق البدائية.

إن الفكر الديالكتيكي بالتأكيد في تعارض مع هذا لأنه يضع كشرط البحث في طبيعة المفاهيم، وهذا غير ممكن إلا بالنسبة للإنسان، وهذا كذلك فقط انطلاقا من درجة أعلى من التطور بالمقارنة (البوذيون واليونانيون) ولا يصل إلى التطور الأكثر اكتمالا إلا بشكل متأخر مع الفلسفة الحديثة ...".

لقد غير الإنسان الطبيعة، أو حولها، وبنى ذاته في خضم هذا النشاط، فهو الذي سمح له بتطوير قوى الإنتاج، ومن ثمة نشوء الثقافة، فوعي الإنسان يتأسس في الثقافة، والثقافة تعتمد على نشاط الإنسان، الذي هو كائن طبيعي، ومن هنا، سمو فكرة ماركس القائلة:

"إن التاريخ هو التاريخ الطبيعي الحقيقي للإنسان".

إن الإنسان كائن طبيعي، وولادته هي التاريخ، وهذا التاريخ الإنساني الخاص ينتهي مع نهاية صراع الطبقات، مع الشيوعية، ويعني هذا أنه في المجتمع الشيوعي أن الإنسان ليس وحيدا مع نفسه، كما أنه في ظل هذا المجتمع لا يتصور الثقافة كنزاع

مفتوح أو حرب شاملة مع الطبيعة، فالتعارض المجرد بين الثقافة والطبيعة ينتهي. ويعبر ماركس عن هذا المعنى في مخطوطات 1844، حينما يقوم بشرح هذا الطابع المزدوج للكائن الإنساني باعتباره طبيعي وثقافي، ويقول ماركس:

"إن الإنسان ليس فقط كائن طبيعي، إنه كذلك كائن طبيعي إنساني، أي كائن يوجد لذاته، أي كائن نوعي (جنريك) عليه أن يؤكد نفسه وأن يعلن عن نفسه باعتباره كذلك في كيانه ومعرفته. وبالتالي، فلا الأشياء الإنسانية تعتبر أشياء طبيعية عندما تقدم نفسها مباشرة، ولا المعنى الإنساني كما هو بشكل مباشر وموضوعي، إحساس إنساني وموضوعية إنسانية. فلا الطبيعة بالمعنى الموضوعي ولا بمعناها الذاتي توجدان بشكل مناسب وملائم من كائن إنساني.

وكما أن كل شيء طبيعي، عليه أن يولد، فالإنسان هو الآخر له عقد ازدياد، فهو عقد ازدياد يحذف نفسه بشكل واع. إن التاريخ هو التاريخ الطبيعي للكائن البشري".

VI - في الوحدة الأساسية بين الإنسان والطبيعة

اعتمدنا في بحثنا هذا، خاصة فيما يتعلق بالجانب الفلسفي على كتاب "إنذار بالكارثة" للقيادي الماركسي ـ اللينيني الألماني ستيفان إنجل، ولعل أهم خلاصة يخرج بها الكتاب هي كما جاء على لسان كاتبه:

"إن هذا الكتاب لا يدع مجالا للشك في أن: "على الإنسانية ألا تضع المسالة البيئية في يد النظام الاجتماعي السائد، وإلا ستنتهي في البربرية الرأسمالية".

إن تطور الأزمة البيئية منذ 1970، قد دخل مرحلة جديدة تتميز بتطور سيرورة تسير نحو كارثة إيكولوجية عالمية، تهدد بتحطيم كل أسس الوجود الإنساني، وتعود المسؤولية الكبرى إلى الاحتكارات العالمية الكبيرة التي تسيطر على مجموع الإنتاج العالمي والتجارة الدولية وكذلك السياسة والاقتصاد والعلوم في كل البلدان.

مقابل هذا التطور المخيف نشأ وعي إيكولوجي لكنه غير كاف لفهم كل نتائج هذا الخطر المهدد لوجود الإنسانية، ولا زال الوعي بالخطورة قاصرا وسط الرأي العام الذي يكتفي بإثارة نقاش حول بعض العوامل المعزولة للأزمة البيئية، وفي الواقع هناك تجاهل للروابط والتفاعلات التي تثيرها الأزمة البيئية في مستواها الراهن، سواء تعلق الأمر بتدمير الأنظمة البيئية في المحيطات أو في الغابات أو بالنسبة لاتساع ثقب الأوزون.

يطرح الكاتب مجموعة من الأسئلة الثاقبة، من قبيل هل بإمكان حجج مقنعة أن تدفع مسؤولي اقتصاد الربح الرأسمالي لتوقيف هذا التطور؟ وهل بإمكان الاحتكارات الدولية السائدة أن تتخلى هكذا عن سيطرتها بدون منازع وعن أرباحها الخيالية بمبرر واحد هو إنقاذ البيئة؟ ويجيب الكاتب عن أسئلته، عندما يرى أن ذلك لن يتحقق لأن أصحاب تلك الاحتكارات الكبرى، وهم يعلمون كل العلم بتلك المخاطر القاتلة، يستمرون في قيادة الأرض نحو كارثة إيكولوجية، وفي يومنا هذا، تدفع ظروف المنافسة الرأسمالية الاحتكارات الدولية إذا هي لم ترد خرابها، نحو الاستغلال المكثف للإنسان والطبيعة.

إن وجود هذا النظام الاجتماعي يقوم بالضرورة على قاعدة تهدد الإنسان والطبيعة، ولذلك أصبحت المسألة البيئية منذ زمن، مسألة سياسية بامتياز، فماذا تصنع الدوائر السياسية المسيطرة على العالم تجاه هذه المسألة. يقول الكاتب:

"إنهم يؤسسون نظاما بيئويا إمبرياليا وبورجوازيا صغيرا للتلاعب بالإنسانية بكاملها، وذلك عبر التهدئة والأكاذيب والإخفاء والحلول المزيفة، وذلك من أجل منع أو تحطيم معنوية المقاومة النشيطة للجماهير".

ويرى الكاتب أن الحل اليوم للمسألة البيئية، يكمن في النضال من أجل تحويل المجتمع عبر ثورة اشتراكية عالمية تعمل على حل المسألة الاجتماعية والإيكولوجية، لأنه في مجتمع اشتراكي تحرر من استغلال الإنسان للإنسان هو الوحيد الكفيل بإعادة

بناء الوحدة بين الإنسان والطبيعة، ولن يكون ذلك ممكنا إلا في مجتمع شيوعي بدون طبقات، حيث تتحقق أنسنة الطبيعة وطبعنة الإنسان بالمعنى الذي حدده كارل ماركس.

وليتحقق هذا الهدف الكبير لابد أن تتوحد الحركة العمالية والحركة الإيكولوجية، وأن يتحول كلاهما، كما على الثوريين عبر العالم أن يتغيروا عن طريق إغناء استراتيجيتهم وتكتيكهم السياسي، وجعلهما في مستوى الوقائع الجديدة.

إن هذه الدراسة التي نعتمد عليها اليوم لتعميق النقاش في قضية مصيرية تهم الإنسانية جمعاء، هي نتاج عمل جماعي لمناضلين ينتمون إلى اختصاصات علمية مختلفة، هدفهم تقديم دراسة علمية وموضوعية لمسألة البيئة من منظور ماركسي، وقد اعتمد الكتاب، حصيلة هذا العمل الجماعي على منهجية تقوم على:

1 – الربط بين الطريقة الديالكتيكية المادية ونظرية الوحدة الأساسية للإنسان والطبيعة التي طورها ماركس وانجلز.

2 – رفض الإصلاحية التي ظهرت داخل الحركة العمالية في نهاية القرن 19، والتي رفضت أسس نظرية الوحدة الأساسية للإنسان والطبيعة عبر تجاهلها أو السكوت عنها، الشيء الذي تولد عليه تأثير سلبي على الحركة العمالية والشعبية، إلى يومنا هذا.

3 – التصدي عبر النقاش النقدي لمعاداة الشيوعية الحديثة في المسألة البيئية.

4 – النقد الإيديولوجي للأشكال المختلفة للخنوع والتتفيه والتبسيط والهلع الموجودة وسط الحركة الإيكولوجية.

1 ـ جدلية الطبيعة:

بالمعنى العام، يتم اختزال مفهوم "الطبيعة" في ظواهر معزولة في بيئة الإنسان كالمناظر الطبيعية وعالم الحيوان والنبات، أو حالة الجو.

من وجهة نظر المادية الجدلية، فمفهوم "الطبيعة" يضم على العكس الواقع الكوني في شموليته.

فمما تتكون الطبيعة؟

إنها تتكون من مجموعة لا نهائية من أشكال الحركة المادية، وحالات المادة في حركة وتحول دائمين، وإن أشكال الحركة المعروفة أكثر هي تغيير المكان، الاحتكاك، الحرارة، الضوء، الكهرباء، المغنطيس، النشاط الإشعاعي، التفاعلات الكيميائية، عملية الأيض البيوكيميائي، والتركيب الضوئي ...

أما حالات المادة المعروفة أكثر فهي الغاز، المواد الصلبة، المواد السائلة.

إن هذه العناصر الطبيعية تتحدد ترابطيا فيما بينها، وفي نفس الوقت توجد في حالة صراع دائم. إن هذه الأشكال تتدرج من المادة المستمرة مرورا بجسيمات دون الذرية لا نهائية في العالم الصغير إلى عالم المجرات المترامي الأطراف، وإلى بنيات عليا أكبر أكثر في العالم الكبير.

لقد تبث الآن، بل وقد تمت البرهنة عليه عن طريق التحليل الطيفي أن المجرات والسديم والنجوم والكواكب كالأرض تتشكل من عناصر تكوينة متشابهة: الذرات، العناصر الكيميائية والجسيمات دون الذرية. إن كل تمظهرات ودرجات تطور المادة، تشكل نظاما لصيرورة وموت كونيين.

تنطلق المادية الجدلية، كما يقول الكاتب، من مبدأ أن الطبيعة مادية، وبأنها توجد بشكل موضوعي ومستقل عن وعي وإرادة الإنسان، كما أن حركات المادة تتبع قوانين الحركة الجدلية، وتعني كلمة الديالكتيك مجموع حركة المادة في شكلها الأكثر عمومية، وفي كل درجة من تطور المادة تظهر أشكال جديدة نوعيا، وكذلك قوانين جديدة للحركة يجب دراستها والتعرف

عليها واستعمالها. إن التقدم المعرفي للإنسانية يظهر من خلال درجة معرفة ديالكتيك الطبيعة، وكذلك عبر القدرة على التطبيق الواعي للطريقة الجدلية في الطبيعة والمجتمع والفكر والإحساس والنشاط الإنساني.

2 ـ الكوسمولوجيا البورجوازية:

تقوم هذه الكوسمولوجيا على نفي لا نهائية المادة، ولا تنظر إلا إلى الأشكال الملموسة للمادة وتعالجها كأشكال مطلقة، ولذلك تعمل الكوسمولوجيا البورجوازية بدون كلل وبدون نتيجة على البحث عن بداية ونهاية الكون (نموذج التأويلات لنظرية "الانفجار الكبير" الذي يؤول على أنه انطلاق من العدم).

إن المادية الجدلية تنظر إلى الظواهر الطبيعية الملموسة باعتبارها نهائية، ولكن في نفس الوقت فإن الحركة العامة للمادة هي لا نهائية. إن لا نهائية المادة، التي توجد في حركة هو ما يميز هويتها الكونية، سواء في الماكروكوزم أو الميكروكوزم، وبناء عليه، فإن الاعتقاد بأن أصل المادة والحركة انبثق من العدم لا يتوافق مع القوانين الخاصة بالطبيعة، فالمادة التي هي في حركة أو الحركة المادية، ليسا لا للخلق ولا للتحطيم. وقد كتب انجلز في هذا الشأن:

"كل الطبيعة التي تمكنا من معرفتها تشكل نظاما، مجموعة منسجمة من الأجسام، وبقبولنا أن ما نعنيه بالأجسام، تلك الحقائق المادية من النجم إلى الذرة، إلى جسيم الأثير في حدود إذا ما قبلنا بوجوده. إن واقع وجود هذه الأجسام في علاقة متبادلة تعني أنها تؤثر بعضها في بعض، وهذا الفعل المتبادل هو بوضوح الحركة، وهنا مسبقا يظهر أن المادة لا يمكن تصورها بدون وجود الحركة، وإذا كان أكثر من هذا، أن المادة تعرض نفسها لنا كشيء معطى، عصية عن الخلق كما هي عصية عن التدمير، ينتج عن هذا أن الحركة هي نفسها عصية عن الخلق أو التحطيم" ("ديالكتيك الطبيعة"، انجلز، المنشورات الاجتماعية، باريس 1975، ص76).

وفيما يخص التغييرات النوعية، يتساءل لينين:

"بماذا يتميز انتقال جدلي عن انتقال غير جدلي؟ يجيب لينين:

"بالقفزة، بالتناقض، بانقطاع التدرج" (لينين، "ملخص دروس تاريخ الفلسفة" لهيجل، الأعمال، باريس، موسكو 1971، مجلد 38، ص 267).

في الطبيعة، فإن شكلي الحركة، التطور والثورة، يتبادلان الشرط، فكلاهما تولد من الأخرى وتتحولان الواحدة إلى الأخرى في سيرورة مستمرة ولا نهائية. فالحركة التدريجية تهيئ التغيير الظاهر، أي القفزة النوعية، التي بدورها ستتحرك عن طريق قفزة في مستوى أعلى دائما.

إن دراسة وتعميم أشكال الحركة اللانهائية للمادة، والسيرورات اللانهائية للتحول من شكل للمادة إلى آخر، وانتزاع قوانين الحركة الملموسة من الطبيعة، التي تفعل فيها، وتطبيقها بعد ذلك، إن هذا ما يشكل القاعدة الإيديولوجية للفهم، الذي يتحسن باستمرار لوحدة الإنسان والطبيعة، وكذلك القدرة أكثر فأكثر على تغييرها. وفي نهاية المطاف، وحده نظام اجتماعي، يسترشد بمثل هذه الطريقة في التفكير العلمي البروليتاري، الاشتراكي والشيوعي، قادر على ضمان وحدة دائمة، في تطور مستمر، للإنسان والطبيعة.

3 ـ التصور الميتافيزيقي المثالي للطبيعة:

فيما يخص قانون الجاذبية، والنظرة الميكانيكية التي تراها "كقوة انجذاب بين الأجسام السماوية"، يقوم انجلز بنقد هذه النظرة من وجهة نظر المادية الجدلية باعتبار أن النظرة الميكانيكية تجعل من هذا المظهر من الجاذبية أمرا مطلقا، يقول انجلز:

"كل السيرورات الطبيعية مزدوجة، فكلها تعتمد على العلاقة بين طرفين فاعلين على الأقل، الفعل ورد الفعل ... لكن الجذب والطرد هما كذلك غير منفصلين الواحد عن الآخر، كما الإيجابي والسلبي، ومن ثمة، وعلى قاعدة الديالكتيك نفسها، يمكننا أن نتنبأ مسبقا بأن النظرية الصحيحة عن المادة يجب عليها أن تعطي للطرد مكانة بنفس الأهمية التي تعطيها للجذب، كما أن نظرية عن المادة تعتمد فقط على الجذب فهي خاطئة وناقصة بعيدة عن الاعتبار ... كل نظرية الجاذبية تعتمد على التأكيد على أن الجذب هو جوهر المادة، وهذا بالضرورة خاطئ، وحيث هناك جذب فلابد أن يستكمل بالطرد" (نفس المرجع، ص 87).

وفي نفس الوقت كما يقول الكاتب:

"إن بنية الذرات تشكل حجة ممتازة لازدواجية الطبيعة، فكتلة الذرة تتمركز داخل النواة الذرية، التي، بسبب شحنتها الكهربائية الإيجابية تمارس قوة جذب على الإلكترونات ذات الشحنة السالبة للسحاب الإلكتروني. إن الطاقة السينيتيكية للإلكترونات تمنع هاته الأخيرة من السقوط في النواة الذرية ذات الشحنة الإيجابية، وتقوم بتحييدها. إن السحابة الإلكترونية تعمل كدرع نسبي بالعلاقة مع الحقل الكهربائي للنواة الذرية ذات الشحنة الإيجابية".

يضيف الكاتب في مكان آخر قائلا:

"أن الطريقة الميتافيزيقية تحل (تذيب) العلاقة الشاملة للسيرورات الأيضية بين الإنسان والطبيعة، وذلك في طوفان من المعارف المعزولة، فتكون النتائج عبارة عن تأويلات خاطئة وعن أخطاء عملية، تكون في أغلبها على حساب الإنسان والبيئة والطبيعة".

وإمعانا في تفسير حقيقة هذا التصور الميتافيزيقي، يضيف الكاتب قائلا:

"إن القوة المحركة الحاسمة للعلوم الطبيعية البورجوازية، والتحويل المباشر، وفي أسرع وقت ممكن للمعارف حول الطبيعة، إلى إنتاج للبضائع، التي تأتي بالربح الأقصى. إن هذا يمليه الصراع التنافسي الرأسمالي الحاد في مرحلة الإنتاج المعولم، إن هذا التحفيز القاصر والمحدود، يحد أكثر فأكثر أفق العلوم الطبيعية، وقاد إلى أزمة في تطور العلوم الطبيعية الحديثة".

إنه فقط، وبالتوافق مع قوانين الكامنة في الطبيعة يمكن بناء وحدة الإنسان والطبيعة بشكل واع، وتطويرها إلى مستوى أعلى.

يقول انجلز:

"إن الديالكتيك المسمى موضوعي يحكم كل الطبيعة، والديالكتيك المسمى ذاتي، الفكر الدياليكتيكي، لا يقوم سوى بعكس الحكم في الطبيعة الشاملة، للحركة عن طريق تعارض الأضداد، التي عن طريق صراعها الدائم، وتحولها النهائي، الواحدة في الأخرى، أو في أشكال عليا، تحدد بشكل واضح حياة الطبيعة" (نفس المرجع، 213)

ويرى الكاتب أن:

"يشكل الديالكتيك المادي بالنسبة لتطور العلوم الطبيعية الحديثة نمط التفكير الحاسم، إنه يشكل الطريقة الوحيدة، التي يمكن معها تفسير سيرورات التطور، العلاقات والانتقالات من حقل بحث إلى آخر في الطبيعة".

4 ـ المحيط الحيوي أساس كل حياة إنسانية:

تعرف العلوم الطبيعية المحيط الحيوي باعتباره ذلك الجزء من الأرض الذي يجعل الحياة ممكنة، ويحتوي على أشكال مختلفة للحياة، وعموما، يحدد المحيط الحيوي في كتب العلوم الطبيعية بشكل أحادي، فمثلا بالنسبة لأستاذ الإيكولوجيا هارتموت بيك، فالمحيط الحيوي هو "فضاء كوكب الأرض الذي تسكنه الكائنات".

إن هذه النظرة الأحادية والتبسيطية خادعة، تنظر إلى العالم الحيوي واللاحيوي كضدين جامدين، وكظاهرتين معزولتين عن بعضهما البعض، والحال أن جوهر الحياة يتمظهر عن طريق أيض نشيط ودائم في علاقة مع العالم اللاحيوي.

من خلال نقده للطريقة الميتافيزيقية في النظر إلى الطبيعة يقول انجلز:

"ذلك أن لا شيء يحصل بشكل منعزل، فكل ظاهرة تؤثر على الأخرى، ولأنهم ينسون هذه الحركة وهذا الفعل الكوني المتبادل، لا يستطيع علماؤنا النظر بوضوح إلى الأشياء الأكثر بساطة" ("ديالكتيك الطبيعة" انجلز ص ص 178، 179).

لقد استطاع العالم السوفياتي فلاديمير إيفانوفيتش فيرنادسكي (1863 – 1945) أن يقدم تعريفا دقيقا لمفهوم المحيط الحيوي، إذ يقول أن كل الكائنات الحية الأرضية بما فيها المادة غير الحية التي تحيط بها، والتي توجد معها في علاقة أيض لانهائي، تساهم في تشكيله أو تكوينه و تترك عليه بصمتها.

إن فيرنادسكي يسطر على الدور النشيط للحياة في نظام المحيط الحيوي خاصة الدور الواعي للإنسان، إن الإنسان بإمكانه أن يغير ويحول بشكل دائم وعميق بيئته الحية والجامدة، ويتأثر بها كذلك، إنه جزء من المحيط الحيوي، بما يعني أنه بإمكانه أن يغير بشكل سلبي البيئة الطبيعية لدرجة تصبح معه الظروف الطبيعية للوجود الإنساني مشوهة بشكل كبير أو حتى مدمرة. وإذا عدنا إلى مفهوم "تحطيم البيئة الطبيعية للإنسان" سنجد هذا المفهوم غير ذي طبيعة علمية من وجهة نظر الديالكتيك، لأن الطبيعة والكون لا يمكن لا خلقهما ولا تحطيمهما، بل فقط تغييرهما.

فيما يتعلق بنظام المحيط الحيوي: بعض المعطيات

إذا قمنا بمقارنته بالحجم الكامل للأرض، فإن المحيط الحيوي يعتبر غلافا رقيقا يمتد 60 كلم إلى الفوق و5 كلم تحت سطح الأرض، إذن، فالمحيط الحيوي يتضمن الطبقة العليا للقشرة الأرضية بما فيها نظام المساحات التي يحتلها الماء والطبقات السفلى للمحيط الحيوي.

لقد ظهرت الحياة منذ 3 مليارات و500 مليون سنة، وذلك نتيجة القدرة اللانهائية التي تتوفر عليها أشكال حركة المادة الحية والجامدة على التحول باستمرار.

في كتابه "الروح لم تسقط من السماء" وصف هويمار فون ديثفورت سيرورة نشأة الحياة الأولى:

"وبالتالي، فالخطوة الأولى للحياة كانت فعلا مستقلا للخروج من الوسط (انفصالا)، الذي سيصبح في نفس الوقت موضوعيا، العالم الخارجي ... إن هذه الفرضية، التي تبدو بديهية، تعارضها مع ذلك، بطريقة تتميز بالمفارقة، ضرورة تسير في الاتجاه المعاكس، والتي تطرح إكراه الإبقاء بدون توقف على الارتباط مع نفس هذا العالم الخارجي ... إن الحل لا يمكن أن يقوم إلا في إنشاء رابط بدرجة عالية من "الكفاءة" مع العالم الخارجي. يجب أن يكون رابطا انتقائيا يقيم الفرز" (ص 32، 33).

هكذا نرى أن استقلالية وانفصال الحياة عن محيطها، وكذلك الأيض الذي انطلق ما بين الكائنات الحية ومحيطها، كانت عبارة عن سيرورات ديالكتيكية تتطور بشكل لولبي إلى مستويات أعلى، منتقلة من أشكال الحياة الأولية إلى أشكال عليا.

في البداية، كان الغلاف الجوي للأرض لا يتوفر على الأوكسجين الصافي، كان الغلاف الجوي مملوءا ببخار الماء، ويتضمن كذلك، من ضمن أشياء أخرى الأمونياك والميتان والهيدروجين، وكذلك المونوكسيد وديوكسيد الكاربون.

"في يومنا هذا، تم النجاح، بعد خلق اصطناعي لظروف الغلاف الجوي البدائي، في خلق عناصر تكوينية للحياة (من بينها الأمينوسيدات والمونونكليوتيدات) وتم تجميعها في حمض نووي وبروتينات. بهذا تم إثبات النشأة الطبيعية للمكونات الأساسية للأيض العضوي وللوراثة".

عندما نتحدث عن الأيض أو عملية الأيض (التمثل الغذائي)، فهناك الحديث عن مجموع التفاعلات الكيميائية التي تجري داخل كائن حي، كي تسمح له خاصة البقاء على قيد الحياة والتكاثر والتطور والرد على محفزات محيطه. إن هذه التحولات البيوكيميائية تتم داخل الخلايا أو الكائن الحي.

يحدد انجلز الحياة **"كنمط لوجود الأجسام الزلالية (بروتينات)، ونمط الوجود هذا يتمثل أساسا في التجدد الدائم بنفسها للمكونات الكيميائية لهذه الأجسام"** ("أنتي دوهرينغ" المنشورات الاجتماعية، باريس، 1977، ص 112).

لقد جاءت العلوم الحديثة، خاصة في ميدان العلوم والأبحاث الجينية بالحجة، التي تثبت أن الجينات تتطور حسب قوانين نابعة منها، وفي علاقة جدلية مع المحيط المتطور باستمرار.

عموما يتم تقسيم المحيط الحيوي إلى ثلاثة أقسام وهي:

1 – الليتوسفير وهي طبقة المعادن والتربات.

2 – الهيدروسفير وهي مساحات الأرض المغمورة بالمياه.

3 – الأتموسفير وهي الغلاف الجوي المحيط بالأرض.

تشكل العناصر الثلاثة نظاما شاملا، يتضمن تفاعلات دياليكتيكة.

إن المادة الحية للمحيط الحيوي تتكون من كائنات حية، أي أنواعا كثيرة من النباتات والحيوانات بما فيها الإنسان، إنها تشكل مجموعات من نظام حياة (تكاثر حيوي: بيوسينوز) وتسكن وسطا ملموسا هو البيئة الحيوية (بيوطوب) ولها هوياتها الخاصة. وبين هاته الأنواع والمكونات الجامدة من المحيط الحيوي تقوم هناك علاقة قوية وتفاعلية، إنها تشكل نظاما بيئيا (إيكوسيستيم).

يتضمن النظام البيئي من حيث التفاعل البيوكيميائي ثلاث تقسيمات أو ثلاث مجموعات وهي:

- المنتجون
- المستهلكون
- المدمرون

إن النباتات تقوم بما يسمى بعملية التمثيل الضوئي، ويعني هذا خلقها لكلوكوز انطلاقا من غاز الكاربون والماء، وذلك باستغلالها للأشعة الشمسية، وعن طريق الأشعة الشمسية ينتج الكلوروفيل الضروري للنبات، فالطاقة الشمسية تصنع طاقة كيميائية (مركبات غنية بالطاقة) عن طريقها يتم تركيب السكر كمادة أساسية كونية، ضرورية لإنتاج الطاقة لدى الكائنات الحية.

وبالنسبة لأعماق البحار تم اكتشاف نظام بيئي مختلف، وذلك سنة 1912، ففي الأعماق التي تصل إلى 5000 متر تتحول المادة غير العضوية إلى مغذيات عضوية، ويتم هذا عبر تركيب كيميائي، حيث المزود بالطاقة هو الماء الذي تسخن عن طريق البراكين والمكونات الكبريتية.

٧ – النضال الإيديولوجي من أجل الوحدة الأساسية للإنسان والطبيعة

إن تاريخ الإنسانية منذ بدايته كان يرتكز على وحدة أكبر أكثر فأكثر للإنسان والطبيعة، إنها سيرورة اجتماعية ابتدأت مع المجتمع البدائي وستصل مرحلتها العليا في المجتمع الشيوعي.

لقد كتب ماركس في مخطوطات 1844 يقول:

"باعتبارها طبيعانية مكتملة، فالشيوعية هي إنسانية، وباعتبارها إنسانية مكتملة فهي طبيعانية. إنها الحل الحقيقي للتناقض بين الإنسان والطبيعة، وبين الإنسان والإنسان".

أما لينين فقد كتب في "المادية والمذهب النقدي التجريبي"، المجلد 14، ص 197 قائلا:

"إن السيطرة على الطبيعة، المحققة في الممارسة الإنسانية، تنتج عن تصور موضوعي دقيق في العقل الإنساني، للظواهر والسيرورات الطبيعية".

إن الرأسمالية فتحت الطريق لتطور العلوم الطبيعية الحديثة وللإنتاج الصناعي، لكنها في نفس الوقت، باعتبار اتجاهها الجوهري نحو البحث عن الربح الأقصى المباشر قامت بتدمير هذا التقدم الهائل، وتجاهلت النتائج السلبية على وحدة الإنسان والطبيعة.

1 ـ ردود الفعل العلمية المزيفة تجاه الأزمة الإيكولوجية:

يعتقد المدافعون عما يسمى ب "مراقبة المناخ"، وبإيمان ساذج أن وحدة الإنسان والطبيعة لا يمكن بشكل أساسي تدميرها لأن التقدم العلمي والتقني سيجد لديه دائما حلا منقذا (انظر كتاب "المناخ، نهاية العالم لن تكون" للفيزيائي جيرد كود فور).

حسب صاحب الكتاب، فإنهم: "لا يأخذون أبدا بعين الاعتبار العلاقات والتفاعلات المركبة بين تهديد كارثة مناخية وعناصر أخرى أساسية للأزمة الإيكولوجية العالمية. إن هذه التحاليل هي عبارة عن تقديم التماسات استثنائية ذات طابع علمي مزيف، وذلك من أجل الاستمرار في نمط الحياة في المجتمع الرأسمالي.

2 ـ تنامي وعي الجماهير بالمسألة الإيكولوجية ومعيقات تطوره:

أمام تنامي الوعي بالمسألة من طرف الجماهير، التي بدأت تتحرك لمناهضة السياسات الامبريالية في هذا المجال، نشأت تيارات هدفها الأساسي هو ضرب هذا التنامي للوعي الإيكولوجي عن طريق خداع الجماهير. وكانعكاس لهذا النزاع نشأ داخل الحركة الإيكولوجية العالمية صراع إيديولوجي حول الطريقة التي يعالج بها الإنسان الطبيعة.

أ – وجهة النظر الدينية:

ومن بين وجهات النظر المثالية التي نشأت تلك التي يدافع عنها الفيلسوف النرويجي آرن نايس، وهو أحد اللذين خلقوا ما يسمى ب "الإيكولوجيا العميقة" أحد الآباء المنظرين الإيديولوجيين لحركة الخضر، يقول في استجواب له سنة 1999:

"إن الإيكولوجيا العميقة تنطلق من وجهة النظر الفلسفية أو "الدينية"، التي ترى أن كل الكائنات الحية لها قيمة، وبالتالي محتاجة إلى الحماية ضد التدمير من طرف ملايير البشر".

إن آرن نايس يرى الإنسان كمجرد مدعو إلى طبيعة عذراء مكتملة فيستغل مضيافية الطبيعة بشكل غير مسؤول، وعبر تصرفه غير المناسب يضع مضيفه، ذو القيمة الكبيرة، الطبيعة، في خطر. بطرحه هذا يتجاهل فيلسوفنا أن الإنسان نفسه جزء من الطبيعة، بل نتاجها الأسمى.

لتوجيه النقد لهذه النظرية المتسمة بالمثالية الدينية والوضعية، ولأطروحتها الأساسية، التي ترى مصالح "كوكب الأرض" ومصالح البشر كضدين جامدين، والنتيجة هي حماية أحدهما من الآخر.

إن أساس هذا الطرح هو القناعة الدينية التي ترى أن العالم قد خلقه الإله، وبالتالي فنفي استمرارية تطور هذا العالم منذ خلقه المزعوم، يفقد الإنسان أي مصداقية بالكامل باعتبار عمله "تدميرا"، والمقصود هنا تأثير الإنسان على تشكل البيئة الطبيعية الحالية.

بناء على هذا الطرح، يكون الإنسان غير قادر على تحمل مسؤوليته تجاه قدره، أي قادرا على تطوير بنفسه، وبشكل خلاق نحو مستوى أعلى محيطه الطبيعي. إنها نظرة دينية متشائمة لا ترى الحل إلا في أمل غامض يأتي من قوة عليا تحمي الطبيعة ضد الإنسان، وكذلك الإنسان ضد نفسه. إن هذا الطرح ليس في نهاية المطاف سوى امتداد ديني بمظهر إيكولوجي لمفهوم الخطيئة الأصلية الإنجيلي ولعجز الإنسان.

إن هذا التأكيد على العجز الإنساني له امتداد في بعض المنوعات "العلمية" الوضعية، وكما هو معلوم فقد انتشرت الوضعية بشكل واسع وساد تأثيرها على العلوم الطبيعية خلال القرن 20.

ب – وجهة النظر الوضعية:

إن وجهة النظر أعلاه، والتي تقر بالعجز الإنساني أمام الطبيعة لها امتداد، بل إحدى منوعاتها، التي تصطبغ بالصبغة "العلمية" وتجد هذا الصدى في الفلسفة الوضعية. وكما هو معلوم فقد انتشرت الوضعية بشكل كبير في ميدان العلوم الطبيعية خلال القرن 20، وحسب هذه الفلسفة ومنهجها، فعلى العلوم أن تبقى محدودة فيما يمكن تسميته بالمعطى الإيجابي، بمعنى آخر

الاهتمام بالأشياء والسيرورات التي يمكن ملاحظتها، فالوضعية تعتبر مسألة البحث في الأسباب الأكثر عمقا والجواهر المتضمنة في الأشياء والروابط الكونية، مجرد تكهنات خالصة.

على المستوى الإيديولوجي تسقط الوضعية في الخلط بين المثالية والمادية، فهي لا تعارض وجود واقع موضوعي خارج تفكيرنا، لكنها تدعي فكرة أن الكائن البشري لا يستطيع أن يعرف الواقع الكوني ولا تحويل ذلك الواقع بشكل إبداعي، وهذا ما يطلق عليه بالفلسفة الثالثة، التي تزعم أنها فلسفة تقع بين المثالية والمادية، ويطلق عليها عموما اللاأدرية، وتعتبر الوضعية التجريدات الرياضية كطريقة علمية صائبة بشكل أساسي، وقد سبق للأستاذ والدكتور في الفيزياء برترام أن انتقد هذه الطريقة، خاصة في مجال التقليل من قيمة تأثير النشاط الإشعاعي على الإنسان، ويقول برترام :

"بالنسبة لتأثير النشاط الإشعاعي النووي على الأنظمة الحية، يتم استعمال نماذج لا تأخذ بالاعتبار، أو بشكل غير كاف التطور الفيزيائي والفيزيزلوجي الفعلي لتمظهرات تحطيم النسيج العضوي، ولتأثير الأنشطة الأيضية" ("بصدد النتائج القاتلة للخلط بين النموذج والواقع"، البروفيسور الدكتور رولف برترام).

ويرى مؤلف الكتاب أن الوضعيين والوضعية، يرون أن التصريحات العلمية حول الواقع الموضوعي، أو حول وجود قوانين موضوعية للطبيعة أمر غير ممكن، بل إنه أمر يتعلق بالإيمان، وتحاول الوضعية دحض وجهة النظر القائلة إن المعرفة الإنسانية بإمكانها أن تعرف أحسن فأحسن، بل أن تلتقط بشكل أكثر دقة، وتطبق بشكل أكثر انتقاء القوانين الموضوعية للطبيعة على أساس التجارب العملية، وذلك بمساعدة المنهج الديالكتيكي المادي.

لكل هذا، تخفي الوضعية عن الناس السبب الحقيقي المؤدي إلى التدمير الكارثي للبيئة، نعني الاقتصاد الرأسمالي القائم على الربح.

عموما، هناك تأثير كبير للوضعية داخل الحركة الإيكولوجية، ويتمظهر ذلك على شكل نمط تفكير بورجوازي صغير تشكيكي، ويتوجه هذا التفكير أساسا ضد الجماهير التي بدأت تعي قيمتها النضالية في هذا المجال من أجل توقيف التطور الكارثي الإيكولوجي، وذلك عبر نضال مشترك مع الحركة العمالية الثورية.

من نتائج الوضعية هو العزلة وقصر النظر والبراغماتية ونمط التفكير البورجوازي الصغير الإصلاحي، الذي لا يضع على جدول الأعمال سوى أهداف إصلاحية بالإمكان التقاطها بشكل مباشر وإدراكها، والحال أنه يجب تحليل العلاقات العامة بطريقة دياليكتيكية مادية، وجعل من الخلاصات التي يتم استنتاجها الخط الموجه للفكر والإحساس والنشاط الإنساني. لهذا السبب بالإمكان توقيف الانتقال داخل الكارثة الإيكولوجية الكونية في حالة إذا ما تم التغلب على التأثير الإيديولوجي للوضعية.

3 ـ الأنتروبيا والقدرية:

من بين أنواع الميتافيزيقا والمثالية المنتشر في صفوف العلماء داخل الحركة الإيكولوجية، هناك ما يسمى بنظرية "الأنتروبيا"، فحسب هذه النظرية، فالواقع يحدده "قانون كوني للقدر". يشرح الدكتور كريستيان شوتز، رئيس التحرير السابق للجريدة اليومية الألمانية "سودنتش زيتونغ" قائلا:

"إن الأنتروبيا هي مجموع الطاقة غير المستعملة المسماة كذلك طاقة مرتبطة ... بتوفير عمل، تدخل الطاقة الحرة في كمية الأنتروبيا الأكثر استعمالا. هذه الأنتروبيا تصبح كبيرة أكثر فأكثر داخل نظام مغلق ... إن تدفق الطاقة يسير دائما في اتجاه وحيد نحو الحرارة ذات الدرجة المنخفضة، إن هذا يشكل جزءا من أساس نشاطنا الاقتصادي، ويشرح في نفس الوقت كل الإشكالية البيئية".

إن السؤال المطروح حسب الكاتب، هو هل بإمكان التيرموديناميك شرح كل شيء؟

إن قانون الأنتروبيا غير صالح إلا في حالة الأنظمة المغلقة، وفي الواقع، لا توجد أنظمة مغلقة بشكل قطعي لا تتبادل لا المادة ولا الطاقة مع محيطها. إن الكون كما يعتقده منظرو الانحدار، نظام مغلق قطعيا، يسير نحو حتفه أو ما يسميه أصحاب هذه النظرية موت الحرارة. وكما سبق أن قيل أعلاه، فعلى خلاف أشكال المادة، التي هي نهائية، فالكون هو مادة في حركة دائمة ومتطورة بدون بداية ولا نهاية.

لقد قام البروفيسور والتر تيرينغ بدحض ثاقب لصلاحية قانون الأنتروبيا على الصعيد الكوني:

"ليس فقط موت الحرارة لبولتزمان لم يتم، بل على العكس، طور الكون أكواما ساخنة، نجوم، وبالتالي بإمكاننا أن نستمتع بالشمس الغنية بالطاقة والفقيرة من حيث الأنتروبيا" ("استقرار المادة من الذرة إلى النجوم" والتر ترينغ، سبرينغر فيرلاغ، برلين 1991، ص 6).

إن نظرية "القانون الكوني للانحدار" تناقض واقع أن هناك تطور في الكون، وكذلك في الأرض، ففي نظامنا الشمسي، فالطاقة الشمسية هي ما يجعل ذلك ممكنا. ونظرية الأنتروبيا تتجاهل ببساطة قوة الشمس، التي تزود الأرض بالطاقة باستمرار، وبالدرجة الأولى بالطاقة الحرارية، وتقوم بفصل المعارف حول الأنتروبيا في مجال السيرورات المعزولة، والتي يمكن أن تكون هامة، عن السياق الشامل لقوانين الطبيعة، المؤثرة كونيا. وباعتبارها مفهوما للعالم، لا تصلح هذه النظرية سوى لتبرير القدرية.

إن فكرة الانحدار الدائم تنزع عن الحركة الإيكولوجية سلاحها، وتزرع موقفا استسلاميا أمام تعقد المشاكل.

"أن يهدي المرء نفسه بعض السنوات الجميلة" أو في أحسن الأحوال تأخير الاختفاء المحتوم، هما الشعاران لدى أصحاب النظرية القدرية ما دام الإنسان لا يمكنه في كل الأحوال أن يوقف تطور الكارثة الإيكولوجية، فليس صدفة أن تكون

وجهة النظر هذه إلى العالم منتشرة بالأخص وسط الفئات الاجتماعية، التي، بحكم نمط حياتها البورجوازي الصغير لا تستطيع أن تتصور فكرة إمكانية إعادة النظر في النظام الاجتماعي الرأسمالي.

4 ـ حول بعض التأويلات الدينية لوحدة الإنسان والطبيعة:

من وجهة النظر التاريخية، لم ينشأ وعي مستقل منفصل عن النشاط المباشر للإنسان إلا بعد نشوء وتطور الطبقات، وتقسيم العمل الاجتماعي إلى عمل مادي يدوي وعمل فكري، هكذا نشأ أناس من داخل المجتمع يفكرون ويعملون بشكل علمي، وعبر أعمال التجريد نشأت العلوم. فمع ظهور المجتمعات الطبقية، أخذت التفسيرات النظرية السائدة حول الطبيعة والمجتمع طابع المثالية الميتافيزيقية أو المادية الميكانكية، فكلاهما كان يبرر السيطرة الطبقية ومؤسساتها الاجتماعية لكل مرحلة تاريخية.

وتحت تأثير الديانات التوحيدية، استطاعت نظرية التعارض بين الفكر والمادة والإنسان والطبيعة والروح والجسد، أن تفرض نفسها.

تقوم الازدواجية (الثنوية) المسيحية وغيرها على ثنائية تقول ب:

- وجود الروح كعنصر غير مادي
- وجود الجسد كعنصر مادي

وحسب هذا الطرح تكون الأولوية للروح لأن أصلها يأتي من إرادة الله، فالإنسان هو صورة الله كما يقولون، سيد الوجود المادي في الطبيعة والمجتمع، وبالتالي دونية المادة مقارنة بسمو الروح وأولويتها.

عن طريق هذه النظرية استطاع الأسياد الإقطاعيون، سواء اللائكيون أو الدينيون، أن يحكموا أوروبا باعتبارهم حكاما للإله على الأرض، ومن ثمة برروا سيطرتهم الأوتوقراطية على الأرض والطبيعة.

وعندما نشأت العلوم الطبيعية الحديثة، حطمت منظور العالم السائد لحد الآن، وخاصة الأشكال البدائية للدين المناهضة للعلوم. ومع تطور الرأسمالية إلى امبريالية وسيادة الاحتكارات والرأسمال المالي على العالم، خاصة في يومنا هذا، انتعشت من جديد المذاهب الدينية حول القدر والخلاص، وأصبحت الديانات التوحيدية تقدم نفسها كسلطة للمجتمع المدني الحديث، كل هذا دون أن تقطع مع تاريخها الإجرامي وتكفيرها للعلوم ولكل التقدم العلمي، خاصة الإسلام.

لقد كتب رجل الدين المسيحي الكاثوليكي أوجين درويرمان، وذلك سنة 1981 كتابا تحت عنوان: "التقدم القاتل: تدمير الطبيعة والكائن البشري على ضوء إرث المسيحية":

"إن ما هيأ طريق هذا التطور بشكل حاسم هو عقلية أوروبا. ففي أعقاب المسيحية وإرثها المعلمن، وحدها هذه العقلية اعتبرت الكائن البشري ليس كجزء من الخلق، بل سيد الطبيعة مع قبول في الكائن البشري نفسه فقط قوة العقل وإرادة السيطرة" (ص 7 من المرجع).

إن هذا التصور قد اعتبر نوعا من مذهب "مركزية الإنسان" من طرف الكنيسة، فتم توقيف صاحب الكتاب ومنعه من التدريس.

ومن باب الملاحظات النقدية، يمكن القول:

1 – إن تركيز هذه النظرية على الأنتروبوسانتريزم يخفي الأسباب المجتمعية لتدمير أسس الوجود الإنساني، وذلك بتحميلها المسؤولية لنوع من العقلية أو الحضارة باعتبارها كذلك.

2 – إن أصحاب "الأنتروبوسانتريزم" يفترضون، أن على الكائن البشري أن يبتعد عن الطبيعة أكثر ما يمكن، وهذا يعني إنكارا بشكل مثالي للدور الخلاق للإنسان في الطبيعة.

إن الإسلام يعتمد على نفس الأرضية المثالية لدى المسيحية، فيضع الإنسان فوق كل كائن حي آخر، فعليه أن يسيطر على الأرض بتوجيه من الله الذي سخر له كل شيء في الأرض.

أما البوذية، فتعتبر أن هناك "طبيعة بوذا" مشتركة بين كل الكائنات الحية، فالقدرة الكونية ليصبح الإنسان "كائنا متنورا" تنطلق من أن الإنسان ليست له أنا لوحده متميزة عن الكائنات الحية الأخرى، ولذلك عليه أن يتصرف بطريقة رحيمة تجاه الكائنات الحية، وفي هذا تتميز البوذية عن زعم السيطرة من طرف الإنسان على الطبيعة، الذي يميز ديانات أخرى، لكن الوجه الآخر للعملة، يتمثل في التخلي عن التدخل النشيط للإنسان في الطبيعة والمجتمع، ولذلك، تعارض هذه الديانة كل تطور واع، وفي مستوى أعلى، لوحدة الإنسان والطبيعة.

5 ـ عيوب الحركة الإيكولوجية:

بحكم توجهاتها السائدة، تتجاهل الحركة الإيكولوجية النظرية الثورية لتطور قوى الإنتاج كما تطرحها المادية التاريخية، وذلك باعتبارها أساس وحدة الإنسان والطبيعة. وتنضاف ملاحظة أخرى تتعلق بموقف الحركة، الذي يحتقر الحركة العمالية، التي تتبنى دورا قياديا في النضال من أجل إنقاذ البيئة الطبيعية وضمان استمرار التقدم الاجتماعي، ويعني هذا إنكار الحركة الإيكولوجية للمسألة الاجتماعية كأساس لحل المشكل البيئي، ومن ثمة تجد أقطابها يهاجمون صراع الطبقات، وهدف التغيير الثوري للمجتمع باعتبارها تقاليد لمراحل مضت. ومع ذلك عندما ننظر إلى اقتراحاتهم نجدهم يعودون للإنتاج الصغير، وإعادة تشكيل الرأسمالية بطريقة إيكولوجية مما يعني في النهاية نشر فكرة وحدة الإيكولوجيا والاقتصاد الرأسمالي.

نجد الكثير من الناطقين باسم هذه التيارات يحطون في الصالونات الوتيرة للمجتمع الرأسمالي، فتجدهم يأكلون بطريقة "بيو" ويسوقون سيارات باستعمال طاقة "بيو" ويسكنون منازل فردية مغطاة بالألواح الشمسية، إنهم لا يقومون إلا بوظيفة "الغسالة الخضراء" للمؤسسة السياسية البورجوازية، ويحاولون التمويه عن تحولهم أكثر فأكثر وبشكل واضح إلى مدافعين ملتزمين بالمجتمع البورجوازي عن طريق جماعات وشعارات مناهضة للشيوعية.

IV ـ المعالجة المادية الجدلية لوحدة الإنسان والطبيعة

لقد قدم انجلز وجهة النظر المادية الجدلية حول تفاعل الإنسان والطبيعة في مقاله الشهير: "دور العمل في تحول القرد إلى إنسان" يقول:

"باختصار، الحيوان يستعمل فقط الطبيعة الخارجية ويحدث داخلها تغييرات بحكم وجوده وسطها، بينما الإنسان، عن طريق التغييرات التي يأتي بها، يقودها إلى خدمة غاياته، أي يسيطر عليها ... وهكذا، فالوقائع تذكرنا في كل خطوة أننا لا نحكم أبدا الطبيعة كما يحكم غاز شعبا أجنبيا، أي كشخص يكون خارج الطبيعة، لكن نحن ننتمي إلى الطبيعة بلحمنا ودمنا ومخنا، نحن في وسطها، وسيطرتنا عليها تكمن في الأفضلية التي تكون لنا على باقي الكائنات باستطاعة معرفة قوانينها، وبقدرة استخدامها بشكل دقيق" ("دياليكتيك الطبيعة"، انجلز).

ويلاحظ انجلز، أن التحكم والضبط الكوني للتأثيرات الطبيعية والاجتماعية للنشاط الإنتاجي للناس غير ممكن، إلا إذا تم قلب نمط الإنتاج الرأسمالي، وبناء المجتمع الاشتراكي. يقول انجلز:

"إننا نتعلم شيئا فشيئا عبر تأدية ثمن تجربة طويلة، وغالبا قاسية، وبفضل مواجهة ودراسة المواد التاريخية، كيف نوضح النتائج الاجتماعية غير المباشرة والبعيدة لنشاطنا الإنتاجي، ومن هنا تتوفر لنا إمكانية السيطرة والضبط لتلك النتائج كذلك.

لكن للقيام بتوجيه بشكل جيد لهذه القواعد التنظيمية نحتاج أكثر، ليس فقط للمعرفة وحدها، بل يجب قلب كامل في نمط إنتاجنا الماضي ومعه كل نظامنا الاجتماعي الحالي" (انجلز "ديناميكية الطبيعة"، ص 182).

1) النقد الأساسي ل "برنامج غوتا" من طرف كارل ماركس وفردريك انجلز:

يعتبر كارل ماركس وفردريك انجلز مؤسسا النظرة العلمية لمجتمع يتجاوز إشكالية استغلال الإنسان للإنسان، الشيء الذي يفترض تنظيم الناس لأنفسهم في علاقات مع الطبيعة بشكل واع ومحترم وكريم.

في سنوات الستينيات من القرن 19 كتب كارل ماركس في الكتاب الثالث من الرأسمال يقول:

"كما أن الإنسان البدائي اضطر إلى النضال ضد الطبيعة لتلبية حاجياته، من أجل البقاء على قيد الحياة ويتناسل، فالإنسان المتحضر مضطر هو الآخر للقيام بذلك، والقيام بذلك كيفما كانت بنية المجتمع ونمط الإنتاج. ومع تطوره، يتسع ميدان الضرورة الطبيعية لأن الحاجيات تتزايد، لكن، وفي نفس الوقت تتوسع القوى المنتجة من أجل تلبيتها. في هذا الميدان، فالحرية الوحيدة الممكنة هي أن الإنسان الاجتماعي والمنتجون المشتركون ينظمون بشكل عقلاني تبادلاتهم مع الطبيعة، التي يراقبونها جماعة بدل أن يكونوا تحت سيطرة قوتها العمياء، ويحققون هذه التبادلات بصرف القليل من القوة، وفي الظروف الأكثر كرامة، الأكثر توافقا مع طبيعتهم الإنسانية" ("الرأسمال"، الكتاب الثالث، المنشورات الاجتماعية، باريس 1974، ص 198 و199، كارل ماركس).

في القرن 19، كانت الإيديولوجية البورجوازية تتجاهل أهمية الطبيعة في العمل الاجتماعي، وفي هذا السياق قام ماركس بنقد آدام سميث، الاقتصادي البورجوازي الذائع الصيت. يقول كارل ماركس:

"بعد الإعلان تباعا أن الأشكال الخاصة للعمل الملموس، الفلاحة، المانيفاكتورة، الملاحة، التجارة ... هي المصادر الحقيقية للثروة، وقد أعلن آدام سميث أن العمل بشكل عام، العمل في مظهره الاجتماعي العام كتقسيم للعمل، كان هو المصدر الوحيد للثروة المادية أو للقيم الاستعمالية. هكذا، فاته بشكل كامل العنصر الطبيعي، وتابع ذلك في دائرة الثروة الاجتماعية الخالصة، أي القيمة التبادلية" ("مساهمة في نقد الاقتصاد السياسي"، المنشورات الاجتماعية، باريس 1972، ص 35، كارل ماركس).

هكذا نجد أن الإيديولوجية البورجوازية تحط من قيمة الطبيعة وتبالغ بشكل مثالي في إمكانيات العمل، بفصلها عن ظروفها الطبيعية الأولية، فالبورجوازية تملكت بشكل خاص الطبيعة كمصدر للثروة، وحولت أكثر فأكثر الموارد الطبيعية إلى بضائع.

1 – في نقد "برنامج غوتا" للحزب الاشتراكي الديموقراطي الألماني:

في سنة 1875، انعقد بغوتا (مدينة ألمانية) مؤتمر التوحيد للحزب الاشتراكي الديموقراطي، الذي كان آنذاك لا يزال ثوريا، مع "الجمعية العامة الألمانية للعمال"، التي أسسها فرديناند لاسال. وكان برنامج الحزب الجديد، الذي سمي ببرنامج غوتا قد تمت بلورته تحت المسؤولية الرئيسية لويلهام لبنيخت (1826- 1900).

قبيل انعقاد المؤتمر، تم نشر مشروع البرنامج في الصحافة الاشتراكية الديموقراطية، وعن طريقها فقط علم كارل ماركس وفردريك انجلز اللذان كانا يعيشان في المنفى في انجلترا، بوجود الوثيقة، وبمجرد الاطلاع عليها توجه انجلز مباشرة إلى أوغوست بيبل مراسلا إياه قائلا:

"إن البرنامج قد تمت بلورته بطريقة، إذا ما تم قبوله، فلا ماركس ولا أنا بإمكاننا أن ننتمي إلى الحزب الجديد، المبني على مثل هذا الأساس ..." ("رسالة إلى بيبل 18 – 28 مارس 1875"، ماركس – انجلز، الأعمال المختارة، ثلاث مجلدات، المجلد الثالث، موسكو، 1976، ص 33).

بين منتصف أبريل ومنتصف ماي 1875، كتب ماركس بوليميكا علميا ضد مشروع برنامج غوتا، والذي أطلق عليه بتواضع عنوانا تحت اسم "حواشي هامشية على برنامج "الحزب العمالي الألماني" وسيصبح النص لاحقا معروفا ب "نقد برنامج غوتا" أحد الوثائق الأكثر أهمية والأكثر انتشارا في الماركسية ـ اللينينية داخل الحركة الشيوعية.

لقد وصف ماركس مشروع البرنامج ب "الانقلاب الفظيع ضد المفهوم المنتشر داخل جماهير الحزب" وكذلك ب "استخفاف إجرامي" وبعمل "سوء نية" ("نقد برامج غوتا" الأعمال المختارة، المجلد الثالث، موسكو 1976، ص 20، كارل ماركس).

لقد ارتكب ويلهام ليبنيخت خطأ أساسيا وفادحا عندما اعتبر النص وثيقة سرية، وحرم المؤتمر من الاطلاع عليها، لكن ماركس شك في المناورة، فكتب في 5 ماي 1877 قائلا:

"لقد أرادوا إخفاء كل نقد، ونبذ كل تفكير من داخل حزبنا" ("رسالة ماركس إلى براك في 5 ماي 1875، ماركس انجلز، الأعمال المختارة، المجلد الثالث، موسكو 1976، ص 8).

وبدون هوادة أو غموض عبر ماركس عن نقده الأساسي والمركزي بخصوص وحدة الإنسان والطبيعة:

"ليس العمل هو مصدر كل ثروة، فالطبيعة هي كذلك مصدر كل القيم الاستعمالية (التي تمثل الثروة الفعلية)، والعمل ليس في حد ذاته إلا التعبير عن قوة طبيعية، قوة عمل الإنسان ... فبقدر ما الإنسان بادئ ذي بدء يعمل كمالك تجاه

الطبيعة، هذا المصدر الأول لكل وسائل ومواد العمل، فليس إلا عندما يعالجها كمادة يمتلكها، يصبح عمله مصدرا للقيم الاستعمالية، حاملا للثروة" ("برنامج غوتا"، ص).

بالنسبة لكارل ماركس، فالتأكيد على القول بأن العمل هو مصدر كل ثروة، هو أمر تحركه مسألة إدامة العلاقات الاستغلالية الرأسمالية، ويقول كارل ماركس في هذا الصدد:

"إن لدى البورجوازيين أسبابا جيدة لكي ينسبوا للعمل هذه القوة فوق الطبيعية للإبداع، ذلك أنه بكون العمل هو في تبعية للطبيعة، يتم استنتاج أن الإنسان، الذي لا يملك شيئا سوى قوة عمله، سيكون بقوة الواقع وبغض النظر عن كل حالة مجتمع وحضارة، عبدا لأناس آخرين انتصبوا كمالكين للظروف الطبيعية للعمل، ولذلك لا يستطيع العمل والعيش إلا بإذن هؤلاء الأخيرين" (المرجع السابق، ص 9).

إن اهتمام الرأسماليين بالطبيعة يختزل في وظيفة هذه الأخيرة باعتبارها وسيلة للإنتاج لأجل "استغلال الأرض" بغاية إعادة الإنتاج أو الاستخراج، - كما كتب ماركس في الكتاب الثالث ل "الرأسمال" (الكتاب الثالث، المجلد الثالث، المنشورات الاجتماعية، باريس 1974، ص 157) - أي استغلال الأرض للزيادة في الرأسمال عن طريق استخراج وتحويل المواد الأولية.

تعتبر الماركسية – اللينينية والاقتصاد السياسي الماركسي – اللينيني أن العمل والطبيعة تجمعهما وحدة أساسية، ومن ثمة فماركس وانجلز يفهمان الإنتاج الاجتماعي كعلاقة أساسية للبشر مع الطبيعة، ويقول كارل ماركس:

"من أجل أن ينتجوا (البشر) يدخلون في روابط وعلاقات محددة فيما بينهم، وليس إلا في حدود هذه الروابط وهذه العلاقات الاجتماعية يكون تأثيرهم على الطبيعة، الإنتاج" ("العمل المأجور والرأسمال"، المنشورات الاجتماعية، باريس 1969، ص 29، كارل ماركس).

إن دراسة "نقد برنامج غوتا" تقدم عدة مواقف تفتح آفاقا عديدة للشيوعيين، وذلك فيما يخص مسائل البرنامج الثوري، إضافة أن هذا النقد لذو قيمة تاريخية خاصة وضعت الوحدة الجدلية بين الإنسان والطبيعة كأحد الأسس البرنامجية للماركسية – اللينينية. وقد قام ماركس وانجلز بتعميق هذا الموقف الماركسي الأساسي في كتاب "الرأسمال" خاصة في الكتاب الثالث، وذلك بالاعتماد على المخطوطات الاقتصادية والفلسفية 1844 لكارل ماركس.

في خطاب حول البرنامج، في مؤتمر هال/ سهال في 1890 بعد 15 عاما من "نقد برنامج غوتا" هاجم ليبنخت ماركس وانجلز بدون ذكرهما مستفيدا من أن المؤتمرين لا يعرفون مؤلفا النقد وذلك بتشويه، وبوقاحة، الوقائع. جادل لبنيخت بجبن ضد أطروحات ماركس وانجلز معتبرا إياها "اقتصاد وطني بورجوازي وضيع" دون أن يغامر بذكر الانتقادات بأسماء أصحابها. يقول ليبنيخت:

"... لقد قيل إن العمل ليس المصدر الوحيد للثروة الاجتماعية، فالطبيعة هي الأخرى تساعد على خلقها ... من قال هذا – وهذا الرأي الخاطئ تمظهر عدة مرات – لم يقم فقط إلا بالتعبير عما قاله الاقتصاد الوطني البورجوازي العديم الطعم قبل زمن طويل ...لذا نعود دائما من جديد إلى العمل كمصدر لكل ثروة" ("بروطوكول مداولات مؤتمر الحزب الاشتراكي الديموقراطي" ص 160، 161).

في أفق نقاش من أجل بلورة برنامج جديد للحزب، اعتبر انجلز أن الوقت قد حان للتعريف ب "نقد برنامج غوتا" لكارل ماركس للحركة العمالية. وأمام كل معارضات قيادة الحزب تم نشره بعد 16 سنة في مجلة "الزمن الجديد" (مجلة الحزب)، فكان ذلك بمثابة موجة عاتية، وفي رسالة إلى بول لافارغ كتب انجلز في 10 فبراير 1891 يقول:

"إن مقالة ماركس أثارت الكثير من غضب القيادة واتفاق الكثير داخل الحزب نفسه عليها" (ماركس - انجلز، الأعمال، المجلد 38، ص 27، الطبعة الألمانية).

هكذا، لم يدمج برنامج إيرفورت لسنة 1891 تلك العبارة الشهيرة القائلة "العمل هو مصدر كل ثروة". وقد لخص انجلز الأمر كما يلي:

"إن المشروع الحالي يتميز بشكل إيجابي أكثر عن البرنامج القديم. إن بقايا تقليد متقادم - هي لاسالية خاصة، اشتراكية مبتذلة – قد تم إلغاؤها، وعلى المستوى النظري فالمشروع في مجموعه يقف على أرضية العلم الراهن، وبالإمكان مناقشته بالوقوف على هذه الأرضية" ("نقد مشروع برنامج الحزب الاشتراكي الديموقراطي، 1891"، ماركس – انجلز، الأعمال المختارة في ثلاث مجلدات، المجلد الثالث، موسكو 1976، ص 466).

لكن رغم كل هذا التقدم لم يقم الحزب بأي إعادة تقييم نقد ذاتي لحذف المواقف الثورية المتعلقة بوحدة الإنسان والطبيعة، لقد ظل ذلك طابوها داخل الاشتراكية الديموقراطية، بل على العكس سيقوم بيبل بتبرير ذلك سنة 1910 في سيرته الذاتية:

"إننا نرى أنه لم يكن سهلا التفاهم مع الشيخين في لندن، فما كان حسابا دقيقا وتكتيكا صائبا عندنا، كان لديهما ضعف ونقص في الحزم لا مسؤول، ففي الأخير كان الأهم هو أن تم التوحيد ("من حياتي" الجزء الثاني، ص 279، أوغوست بيبل).

2 – صراعات حول "جدلية الطبيعة":

في يونيو 1876، وفي أعقاب النقاش حول برنامج غوتا، استمر انجلز في دراسة المسألة البيئية، وبتشاور مع كارل ماركس، وعبر حوالي 200 نص مختلف، قام بتعميق مسألة الوحدة الأساسية بين الإنسان والطبيعة.

مرة أخرى، لم تنشر هذه النصوص إلا في سنة 1925 في شكل كتاب بالألمانية والروسية، وذلك في الاتحاد السوفياتي، تحت عنوان: "ديناميكية الطبيعة".

في سياق تكريم للعمل في سلسلة "دراسات نظرية" قدمتها الكومنترن تحت عنوان "تحت راية الماركسية"، قام الكاتب توني ريازيف بالحديث عن الاحتقار الذي قامت به قيادة الاشتراكية الديموقراطية الألمانية تجاه هذا الكتاب:

"عندما نأخذ الكتاب، لا نعرف هل يجب الإعجاب بالعمل الممتاز للناشر أو يجب استنكار واقع كتاب يتميز بقيمة استثنائية لم يتم نشره إلا لاحقا، قد ظل على الهامش سنوات طويلة" ("تحت راية الماركسية"، السنة الأولى، مارس 1925 إلى يناير 1926، ص 459).

وقد قام الكاتب بمدح شروحات انجلز المتعلقة بالفيزياء، التي توافقت مع المعارف العلمية، فكتب يقول:

"بدون أن نتهم بالمبالغة، يمكننا أن نقول بشكل جيد أن هذا الكتاب الممتاز، الذي استطاع الرفيق ريازانوف انتشاله من تحت الغبار من 30 سنة في الأرشيف الاشتراكي الديموقراطي، سيقرأ دائما، ويعيد قراءته كل العلماء الماركسيين".

إن اختزال أهمية هذا الكتاب في مسائله العلمية فقط، يعتبر تبخيسا للمنهج الديناميكتيكي المادي، وقد كان لذلك أثر كبير على الحركة الشيوعية العالمية، فمثلا، سوف لن نجد في برامج الحزب الشيوعي الألماني في 1918 وفي 1922 وكذلك 1930، ولا في خطابات أو كتابات إرنست تالمان، أو في نداء اللجنة المركزية للحزب الشيوعي الألماني سنة 1945 من أجل إعادة تأسيس الحزب، صياغات برنامجية حول المسألة البيئية، خاصة الوحدة الجدلية للإنسان والطبيعة.

3 – في معالجة مسألة البيئة من طرف أحزاب الحركة الشيوعية القديمة:

بطبيعة الحال، يجب الأخذ بعين الاعتبار السياق العام لتلك المرحلة، التي لم تعرف إلا كوارث إيكولوجية إقليمية، دون أن تصل إلى مستوى أزمة إيكولوجية عالمية، بالإضافة إلى كون الوعي الإيكولوجي داخل المجتمع كان ضعيفا. إلا أنه لا يمكن ربط مسالة وحدة الإنسان والطبيعة بمرحلة محددة لأن المسألة تعتبر مسألة أساسية في الماركسية. إن هذا التبخيس على المستوى الإيديولوجي للمسألة يتناقض مع فكر لينين، الذي عالج دائما وحدة الإنسان والطبيعة كمسألة أساسية. ففي كتاباته الفلسفية اعتبرها خطا فاصلا بين المادية والمثالية، ويقول لينين:

"... ليست الطبيعة وامبراطورية الإنسان من تتوافق مع المبادئ، بل إن المبادئ لا تكون صحيحة إلا إذا كانت موافقة للطبيعة والتاريخ، فهذا هو المفهوم المادي الوحيد للمسألة". يتعلق الأمر هنا **"بالتناقض بين المادية والمثالية، باختلاف الخطين الأساسيين للفلسفة"** ("المادية والمذهب النقدي التجريبي" ص 14، لينين).

بعد انحطاط الأحزاب الشيوعية التحريفية وسقوطها، تلك التي كانت تنتمي إلى الحركة الشيوعية القديمة، نشأت أحزاب شيوعية ماركسية – لينينية جديدة ابتداء من سنة 1960، قامت بالتركيز على الدفاع عن الماركسية – اللينينية، ومن أجل بناء أحزاب شيوعية جديدة إلا أنها ظلت تحت تأثير إرث الأحزاب الشيوعية القديمة فيما يخص مسألة البيئة ومسألة وحدة الإنسان والطبيعة.

في نهاية القرن 19، كان الحزب الاشتراكي الديموقراطي الألماني لا يزال ثوريا، لكن رفضه القيام بنقد ذاتي، وغياب المبادئ، التي أصبحت تعكس الانتهازية المنتشرة داخل الحزب في سياق تطور الرأسمالية الامبريالية وانعكاس ذلك على الطبقة العاملة،

أصبح التخلي عن مواقف ماركس حول موضوع وحدة الإنسان والطبيعة بداية لإبعاد المسألة البيئية في الحركة العمالية العالمية.

في سنة 1914، أصبح الحزب الاشتراكي الديموقراطي حزبا إصلاحيا بورجوازيا، وأصبح موقفه من المسألة إحدى أسس خطه الإصلاحي، وسارت على نهجه النقابات التابعة للحزب.

إن خنق نقد ماركس لأطروحات الحزب في علاقة الإنسان بالطبيعة والمسألة البيئية عموما، سيترك آثارا إيديولوجية عميقة داخل الحزب، فالتأكيد على أن العمل هو "مصدر كل ثروة" سيصبح دوغما للإصلاحية، وفي 30 أبريل 1911، كتب رئيس الحزب الاشتراكي الديموقراطي الألماني سيغمار غابرييل، وكذلك ميخائيل سومير رئيس النقابة التابعة للحزب بمناسبة فاتح ماي، مقالا مشتركا نشر في يومية "فرانكفونتر الجميم زيتونغ":

"منذ البداية ناضلت الحركة العمالية من أجل إعطاء التقدير للعمل كمصدر لكل ثروة وحضارة".

وعندما نشأت الجمهورية الديموقراطية الألمانية بعد الحرب العالمية الثانية، تشكل الحزب الاشتراكي الموحد، الذي كان ثوريا في سنواته الأولى، لكن سرعان ما عاد إلى الأطروحات التحريفية، وقد جاء في إحدى كتاباته أن:

"في الشيوعية كما في كل مجتمع يظل العمل مصدرا لكل القيم" ("الكون، الأرض، الإنسان"، الطبعة 19 المنقحة 1971، برلين، ص 495).

إن الطابع الاقتصادوي واحتقار المسألة البيئية من طرف هذه الأطروحة الإصلاحية والتحريفية قد نزل بكلكله وترك تأثيره الكبير على الحركة الشيوعية إلى يومنا هذا، وقد آن الأوان لإعادة الاعتبار للأطروحة الماركسية الأصلية كما صاغها ماركس

في "المخطوطات ..." وفي الكتاب الثالث من "الرأسمال"، وخاصة في "نقد برنامج غوتا" ومساهمة انجلز في كتابه القيم "دياليكتيك الطبيعة" إضافة إلى الإسهام العظيم لفلاديمير لينين في كتابه الفلسفي "المادية والمذهب النقدي التجريبي".

وليد الزرقطوني

لائحة مختصرة للمراجع المعتمدة

1 – مرض كورونا فيروس 19 (كوفيد 19): منتوج عالم الإنتاج الرأسمالي، مارس 2020

2 – كوفيد 19 ودوائر الرساميل

3 – الطب الامبريالي والمجتمعات المحلية، دافيد أرلوند

4 – الشيوعية، الإنسانية والحيوانات

5 – المادية البورجوازية ضد كرامة الواقع

6– وجهة نظر الشيوعية حول علوم الطبيعة والتفاؤل كهوية

7 – الاقتصاد السياسي للمنظمات الثورية

8 – فيروس كورونا ضد الرأسمالية

9 - العولمة الرأسمالية وتصاعد الأوبئة

10 – إيبو : احتباس حراري، اجتثاث الغابات و فشل السوق

11 - 1N1H : انبثاق جائحة فيروسية في المعامل الضخمة الرأسمالية لإنتاج الخنازير

12 – زيكا : عولمة البعوض أيديس و غياب الخدمات العمومية

13 – الصحة في الجنوب بين سياسات التقويم الهيكلي والرأسمالية الإحسانية

14 – ما قبل وما بعد كورونا فيروس: دروس للمستقبل

15 – المزارع الكبرى تصنع الأنفلوانزا الكبيرة: إرساليات حول الأمراض المعدية، الأكروبيزنيس وطبيعة العلم، كتاب صدر في مجلة "مونتلي ريفيو" بريس 2016

16 – العدوى الاجتماعية، الحرب الطبقية المكروبيولوجية في الصين، 20 مارس 2020

17 – الحجر الصحي كممارسة للمهارة السياسية

18 – من الطاعون إل كورونا فيروس: سبعة أشياء يجب معرفتها عن تاريخ الأوبئة

19 – أوبئة غيرت التاريخ: سقوط الديموقراطية في أثينا (حلقة من حلقات برنامج "في الذاكرة" خصصت للعالم البيولوجي فيودور ليسينتينغ، عالم مختص في تاريخ الأوبئة تقدمه قناة روسيا اليوم)

20 – الإسكاتولوجيا، نهاية الأزمنة: القلق بدون نهاية

21 – إنذار بالكارثة، ستيفان أنجيل

22 – العمل بالزراعة، العوامل المسببة للأمراض: المرونة الإيكولوجية و العملية التطورية، روبرت ج . والاس، عالم بيولوجي ماركسي

23 – عندما تقلب الجوائح التاريخ

24 – الفكر القيامي

25 – استجواب مع علي بن مخلوف (فيلسوف فرنكفوني)

26 – الطاعون، الكوليرا (بوكليب)، التيفوس ...: هاته الجوائح التي غيرت وجه المغرب، ملف مجلة "زمان"، أبريل 2020، عدد 113، ويضم المقالات التالية:

- الطاعون ملك القرون الوسطى

- ثقل الدين والخرافات

- المغرب في زمن بوكليب

- شهادة: أبي الذي قاوم الطاعون والجدري ...

27 – من الجدري إلى كوفيد 19، تلقيحات الخوف، مجلة "زمان"، فبراير 2021، عدد 123

28 – المفهوم الجدلي للطبيعة، جورج غاستو

29 – لين مارغليس وتطور الحياة، من البكتيريا إلى السامبيوجينيز

30 – تعريف العلوم الطبيعية، المفهوم والمعنى

31 – المادية الجدلية والمادة الحية

32 – المادية الجدلية والطبيعة الجدلية للكون نفسه

33 – المادية الجدلية والكون

34 – المادية و العلوم الطبيعية، البروفيسور خ . فاتاليف

35 – الماركسية الإيكولوجية مرشد للقراءة

36 – الفيروسات تطورت مع الرأسمالية، فرانسوا لنغلي

37 – الرأسمال ضد الطبيعة

38 – ماركس والإيكولوجيا

39 – من الأيكولوجيا إلى الإيكولوجاوية لماركس

40 – الإيكولوجيا و التتمية في تايوان و الصين

41 – حول كتاب "كارل ماركس كمفكر للإيكولوجيا لهنري بينيا رويز، فرانسوا جيريز

42 – كارل ماركس واستغلال الطبيعة، جون بيلامي فوستر

43 – ما قبل كرونا فيروس وما بعدها: دروس للمستقبل

44 – الإيكولوجيا انتداب السماء لدى الحكومة الصينية

45 – الأزمة العامة للرأسمالية وارتجاف الحضارة

46 – كورونا فيروس وتناقضات العولمة

47 – المادية الجدلية والفيروسات

48 – الإيكولوجيا على ضوء الماركسية - اللينينية

49 – الإيكولوجيا السياسية في الصين

50 – الجدور الاجتماعية لكوفيد 19 هي كذلك اساسية مثل الفيروس نفسه

51 – الإنسان في مواجهة الأوبئة

52 – الماركسية والاشتراكية الإيكولوجية

53 – الماركسية والبيئة

54 – ثلاث أسئلة موجهة لجون بيلامي فوستر

55 – الطبيعة والثقافة في الصين

56 – إيكولوجية ماركس: فكر خارج النظام

57 – فيروس مكيف مع الرأسمالية، جيروم غيليز

58 – الكورونا (الفيروس الغامض بسلامته) بين اللاهوت والسياسة والعلم

59 – في المغرب رفض السلاطين الحجر الصحي، بوجمعة رويان

60 – الطب الكولونيالي الفرنسي في المغرب، بوجمعة رويان

61 – الطاقة في الصين: عشريات ماو

62 – فلاديمير فيرنادسكي والمحيط الحيوي

63 – دكالة والاستعمار البرتغالي إلى سنة إخلاء آسفي و آزمور، أحمد بوشارب، طبعة 1، 1984

64 – محمد فتحة، مساهمة في تاريخ مدينة

65-مقال محمد فتحة: "المدينة والدولة المخزنية"، ضمن كتاب "المجتمع الحضري والسلطة في المغرب".

66-كتاب "المجتمع الحضري والسلطة بالمغرب من القرن 15 إلى القرن 18 قضايا ونصوص، عبد الأحد السبتي وحليمة فرحات.

67-كتاب " المغرب في العصر الوسيط" محمد زنيبر.

68-كتاب " المغرب عبر التاريخ" ثلاث أجزاء، إبراهيم حركات.

69-كتاب "تاريخ الضعيف تاريخ الدولة السعيدة، محمد الضعيف الرباطي.

70- الاستقصاء في اخبار المغرب الأقصى، الناصري.

71-كتاب " جوانب من تاريخ سلا وعمارتها من التأسيس إلى بداية القرن العشرين" محمد فتحة.

ملحق

الأوبئة في تاريخ المغرب: محاولة تركيبية مختصرة

وليد الزرقطوني

عندما شرع الإعلام الدولي المتحكم فيه إمبرياليا في إطلاق حملاته حول ما يسمى كوفيد 19، الذي يهدد البشرية جمعاء، كان المغاربة يعتقدون أن الأمر لا يعدو أن يكون مجرد وصلات إعلامية ظرفية اعتادوا على سماعها كل سنة، خاصة مع بداية السنة، لكن ما أن أعلنت الدولة المخزنية عن دخول المغرب مرحلة الحجر الصحي لمواجهة انتشار وباء كوفيد 19، سيرا على نهج أغلبية دول العالم و توجيهات منظمة الصحة العالمية، التي تتحكم فيها كبرى شركات الأدوية العالمية والصناديق الممولة لها، مثال صندوق بيل غيتس الشهير، حتى استفاق المغاربة على أمر جلل بدأ يقيد حركاتهم وسكناتهم ويحول حياتهم إلى جحيم.

لقد بدا الأمر هذه المرة جديا، استفاقت معه الذاكرة الشعبية، فتحركت أقلام المؤرخين والمثقفين للحديث عن تاريخ الأوبئة والأمراض والجوائح والكوارث الطبيعية، التي هزت المجتمع المغربي خلال عصور مختلفة، تشكلت معها ذاكرة شعبية وثقافة مرتبطة بالتعامل مع الأوبئة والأمراض والجوائح، وكذا محاولة تفسيرها والتعامل معها.

كما الأمس، لم تتغير العقليات والتصرفات ومحاولة تفسير الأسباب لكون البنى الإيديولوجية والثقافية لم تتغير في الجوهر، وكذلك لكون التشكيلة الاقتصادية والاجتماعية المغربية لم تعرف ثورات فكرية وثقافية عميقة تغير منظور الناس للأوبئة والأمراض، وتؤدي إلى تغيير تصرفاتهم اتجاهها. وكما الأمس، أدى الحجر الصحي إلى تفاقم الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية لأغلبية الجماهير الشعبية، التي أصبحت تعاني بشكل كبير من فقدان مصادر عيشها، بعدما عرفت العديد من القطاعات هلاكها مع الحجر الصحي (قطاع المقاهي والمطاعم، تنظيم الحفلات، السياحة، الحمامات الشعبية، القاعات الرياضية، الباعة المتجولون ...) كما تأثرت القدرات الشرائية للجماهير الشعبية الكادحة بسبب غلاء المعيشة وفقدان مناصب الشغل وتفشي البطالة. وقد استغل النظام الظرفية لإطلاق الزيادات في الأسعار، كما أظهرت سياساته الصحية والاجتماعية عجزا كبيرا عن استيعاب كل حاجيات استقبال المرضى والمصابين، اللذين أصبحوا محاصرين في منازلهم بدون متابعة ومراقبة طبية.

و إذا كانت الجماهير قد عانت و تعاني بشكل كبير من الأوضاع أعلاه، فإن الحجر الصحي، الذي دشن مرحلة جديدة من الحرب الطبقية ضد قوت الجماهير قد كان في مصلحة الفئات الاجتماعية المحتكرة لمصادر إنتاج الثروة في البلاد، و كذا جل القطاعات ذات الصلة بالتحالف الرأسمالي الكمبرادوري - الامبريالي ، فمثلا، حققت اتصالات المغرب مداخيل و أرباح هائلة نتيجة تصاعد استعمال الأنترنيت بسبب قبوع الناس في منازلهم و حقق قطاع الإشهار أرباحا خيالية مستفيدا من نفس الوضعية، و من تزايد إقبال الناس على وسائل التواصل الاجتماعي و على مشاهدة المسلسلات السخيفة التي تقدمها التلفزة المغربية.

في نفس السياق، استفادت الفضاءات الكبرى التجارية من القيود والعراقيل التي تعرضت لها التجارة الصغيرة والمتوسطة، وكذا من المحاربة المنهجية التي تعرض لها الباعة المتجولون (الفراشة). واستغل الملاكون العقاريون الكبار و المضاربون و الدولة الوضعية للاستيلاء على مزيد من الأراضي و العقارات تحت غطاء محاربة البناء العشوائي و خدمة المصلحة العامة مستفيدين في ذلك من الوضعية الدكتاتورية السائدة التي تمنع كل أشكال الاحتجاج و الحريات الديموقراطية بمبرر الحجر الصحي و انتشار كورونا.

وفي الوقت الذي كانت فيه قوات القمع تطارد وتتابع وتعتقل كل مخالف لإجراءات الدولة المخزنية كانت بعض القطاعات لا تخضع لنفس التدابير الصارمة من قبيل التراموای ووسائل النقل العمومي وغيرها.

وبالعودة إلى تاريخ المغرب نجد نفس الأوضاع مع اختلاف الزمان والمكان، بل على المستوى السياسي، وعلى سبيل المقارنة نجد نفس دولة المخزن معربدة في هكذا أوضاع. وبالفعل، استفادت الدولة المخزنية الكمبرادورية من الحجر الصحي لتعيد إلى الأذهان تلك الممارسات البائدة لدولة المخزن القديمة، من خلال السيطرة المطلقة للدولة وأعوانها، حيث أصبح عمالها وولاتها وباشواتها وقوادها ومقدميها يصولون ويجولون في الشوارع والأزقة يطاردون المواطنين وينكلون بهم.

كما في باقي بلدان العالم، في مراكزها وأطرافها، شكلت ولا زالت فترة الحجر الصحي تمرينا أقصى لممارسة الدكتاتورية وحرمان الناس من حرياتهم وخوض حرب طبقية سافرة ضد العمال والكادحين والأجراء، حقا لقد شكلت فترة الحجر الصحي تمرينا للرأسمال العالمي ودولته لمواجهة كارثة أزمته القادمة وغير المسبوقة. وتظهر الملاحظة الدقيقة لما يجري داخل بلدان المراكز الرأسمالية نفسها أن الفاشية تزحف بخطى حثيثة لتصبح نظاما قائما بذاته مع اختلاف في الشكل وبعض المضامين.

I- المغاربة والأوبئة

كباقي شعوب الأرض، عندما تجتاح الأوبئة المغرب يعود الناس إلى التاريخ و كيفية التصرف تجاه خذه الأوبئة، فالأوروبيون مثلا ظلوا يتذكرون لقرون طويلة مرحلة انتشار الطاعون الأسود (نوع من الطاعون لعله الأكثر فتكا) سنة 1348، الذي قضى على جزء كبير من سكان أوروبا إذا لم نقل أفرغها من ساكنتها، الشيء الذي كانت له نتائج كبيرة على تطور أوروبا و انتقالها إلى مرحلة جديدة في تاريخها، و هو ما لم يتحقق بالنسبة للتشكيلات الاجتماعية العربية و شمال إفريقيا و منها التشكيلة الاجتماعية المغربية التي عرفت انتشار أوبئة و جوائح كثيرة على مر تاريخها .

بالنسبة للمغرب، وبالرغم من دخول العديد من التكنولوجيات منذ احتكاكه بالمد الاستعماري الصاعد فعقلية المغاربة لم تتغير وتكاد لا تختلف عن سابقاتها.

1 ـ وباء الطاعون:

إن الطاعون كمرض رئيسي هيمن على القرون الوسطى قد عصف بمئات الآلاف من الأشخاص في المغرب، كمثال على ذلك حالات مناطق دكالة والشاوية وفاس، هاته الأخيرة قضى فيها الطاعون على عشرين ألف شخص دفعة واحدة، وقد عرف المغاربة الطاعون الأسود كأحد أنواع الطاعون، وقد ساد كجائحة عالمية في القرن 14، وقضى بشكل كامل على مدينة سلا.

ويرى المؤرخون أن هناك ثلاثة قرون فقد فيها المغرب كل شيء، وتمتد من منتصف النصف الثاني من القرن 13 إلى النصف الأول من القرن 16. وقد عرفت هذه المرحلة (ثلاث قرون تقريبا) انقلابات اقتصادية، سياسية، ثقافية وديموغرافية في العالم، وتميزت بالنسبة للمغرب بتراجع بنيات الدولة المغربية مما أثر على مجموع مكونات المجتمع.

بالفعل عرفت هذه الفترة مرحلة طويلة من توالي الأوبئة كانت مصاحبة بمراحل عرفت فيها البلاد الجفاف والجوع، وقد كان أغلب ضحايا هذه الأوبئة ينتمون إلى الطبقات الشعبية التي كانت تشكل اليد العاملة الأساسية للاقتصاد المغربي ما قبل الرأسمالي. لقد ضربت مراحل الأوبئة والمجاعات والجوائح والجفاف مجموع التوازنات السياسية والاقتصادية والاجتماعية للمغرب مما كان له أثر كبير على الأنشطة الفلاحية، خاصة، وبسبب ضعف الصناعة، تبقى الحرف المرتبطة بالأرض مشكلة الأساسي من النسيج الاقتصادي الذي تضرر بالكوارث البشرية التي مست العالم القروي.

لقد كانت الخسائر كبيرة: أولها الخسائر البشرية، حيث بلغ عدد الموتى درجة أصبح معها ضروريا اللجوء إلى المقابر الجماعية يدفن فيها عدد من الموتى قد يصل إلى المائة، بل وأحيانا توضع ثلاث أو أربع جثث في كفن واحد. لقد قضت الكوارث على أعداد كبيرة من السكان في البوادي، خاصة في السهول وبدرجة أقل سكان الجبال التي كانت بعيدة ومنعزلة عن شبكات الطرق والمحاور التجارية، ونفس الحال بالنسبة للمناطق الصحراوية، وبذلك شكلت المناطق الجبلية والصحراوية احتياطيا بشريا ساهم في إعادة إسكان المناطق المنكوبة.

ويرى بعض الدارسين أنه رغم هذا التعويض والتنقل الديموغرافي لم يعرف النشاط الاقتصادي عودة، خاصة في الميدان الفلاحي لأن القادمين الجدد لم يكونوا يتوفرون على المعرفة والإنتاجية، التي كان يتوفر عليها سابقوهم.

من هنا، تم استنتاج بأن الأوبئة كانت سببا في استبدال السكان المستقرين ذوي التكوين والمدربين في مجال التعامل مع الأرض، مما كان له تأثير كبير على الفلاحة في المغرب. ذلك أن تعويضهم برحل أو شبه رحل لم يؤد إل نتيجة إيجابية لأن هؤلاء سرعان ما يتخلون عن الفلاحة والتعاطي للرعي فأصبحت اليد العاملة القادرة على خدمة خيرات الأرض نادرة. وتظهر

بعض الأبحاث أن بعض المناطق التي أصابتها الكوارث كان السكان فيها مستعدين لأي شيء بما فيه بيع أنفسهم وأقربائهم للأوروبيين مقابل كسرة خبز كما حصل في دكالة، التي كانت ضحية وباء رهيب للطاعون. ولم تقض الأوبئة والكوارث على البشر فقط، فقد عرف القطيع انحصارا كبيرا (الأبقار والأغنام وغيرها) وقد مست الأوبئة الرعاة كذلك، وكمثال، فقد قضت فترات الطاعون مابين 1361 و1362 على العديد منهم لدى قبيلة بني سفيان، فاضمحل نشاطهم الرعوي بسبب ذلك. وقد حصل نفس الشيء لدى قبائل الشاوية خلال ثلاثة سنوات من وباء الطاعون إبان حكم الوطاسيين.

لقد كانت الكوارث والأوبئة سببا في تقلص الرقعة الزراعية في المغرب، كما أدى المرض والموت والخوف والغضب إلى تمزيق وضرب قوانين وأعراف استغلال الأراضي الجماعية ورسوم الملكية. لقد غادر العديد من الفلاحين أراضيهم ولجأوا إلى الأولياء طالبين الحماية، كما تعرضت المدن لدمار شامل مسح بعضها من الخريطة. لقد كانت المدن المغربية في هذه المراحل تعتمد على التجارة والصناعة الحرفية، التي أصابها ضرر كبير، ذلك أن البوادي كانت المزود الأول بالمواد الأولية، وبالتالي أدت أزمة الصناع بشكل حتمي إلى أزمة التجار، هكذا وحسب روزنبرغ فإن مدينة فاس قد عرفت أزمات حادة في ظل فترات الطاعون الأسود، التي حصدت في 1441 – 1442 و1468 – 1469 ما يناهز 400 ألف شخص، كما عاشت المدينة نفس الكابوس سنة 1492.

لقد جعلت الأوبئة والموت عددا أكبر من الصناع والتجار يفرون أو يقفلون حوانيتهم ويغادرون المدينة تاركين كل شيء وراءهم، وقد عرفت مدينة سلا نفس الشيء إذا لم يكن بشكل أسوأ، وأصبح العديد من المدن مدن أشباح، فمدينة مراكش، المدينة الثانية بعد فاس غادرها ثلث سكانها حسب الوصف الذي قدمه حسن الوزان (ليون الإفريقي).

لقد تسببت هذه الأوضاع في هبوط كبير للقدرات الشرائية للناس وغلاء الأسعار وتزايد الاحتكار.

لقد عرف المغرب كذلك توالي الأوبئة والجوائح نهاية القرن 16 وكذلك في بداية القرن 17. ونفس الشي عرفه القرن 18 و19، حيث كان الوباء ينتشر بشكل دوري، ومن أشهر الحالات الوبائية تلك التي عرفها المغرب في 1730 ثم في 1742، وقد قتلت العديد من ساكنة وزان والقصر الكبير، ثم تأتي حالة 1744، التي ضربت مدينة آسفي، وتميزت كل الحالات بظهور حالات مثل القيء وحمى قوية وضعف الجسم وظهور تورمات في العنق والقفا وتحت الإبط. وفي سنة 1755، عاد الوباء ليضرب المغرب من جديد حيث كان عدد الموتى يتراوح ما بين 300 و 2000 في اليوم الواحد حسب ارساليات القناصل الأجانب، ثم جاءت المرحلة الكبيرة، التي ضرب فيها الوباء المغرب سنة 1799 – 1800، وصل حد أن الساكنة لم تكن تستطيع دفن الأموات، وقد ظهر هذا الوباء في فاس في أبريل 1799، حيث كان يقضي على 700 إلى 800 في اليوم الواحد، وقد انتشر الوباء بعد عودة الحجاج من مكة حيث أصيبوا بالعدوى بعد مرورهم على مصر، فقد وصل عدد الموتى في فاس إلى 65 ألف و في الرباط إلى 20 ألف وفي مراكش إلى 50 ألف، وقد بلغ عدد الموتى درجة لم يعد فيها بالإمكان دفن الموتى فرادى، بل كان يتم دفنهم في مقابر جماعية. وقد كانت جثث الموتى منتشرة في الأزقة، حيث تتصارع الكلاب والطيور حول بقايا الجثث.

هناك طاعون آخر ضرب المغرب سنتي 1818 و1820، وقد انتقل الوباء إلى المغرب من الشرق عبر الحجاج.

2 ـ المغرب في زمن الكوليرا (بوكليب):

تحتل الكوليرا المرتبة الثانية بعد الطاعون من حيث قوة الفتك والقتل والإصابة، وقد ظهرت سنة 1834 وأطلق عليها المغاربة اسم بوكليب، وكانت بالنسبة لهم مرضا مجهولا وسريع القتل. وتظهر أعراض الكوليرا في اسوداد أعين الضحايا بالإضافة إلى السعال والقيء والإسهال القوي وآلام في الأرجل.

في سنة 1850، ضرب هذا الوباء مدينة فاس، ويعود مصدر ذلك إلى الماء الملوث، الذي يسقي مدينة فاس والملاح (الحي اليهودي بالمدينة)، وقد مات 800 شخص في المدينة من جراء الوباء. ويرى الباحثون والمؤرخون أن أسباب هذه الجوائح وانتشارها المتكرر يعود إلى الجفاف والجوع وغزو الجراد، ثم سوء التغذية، فالعلاقة مع الشرق التي لعبت دورا أساسيا، هناك أيضا دور الحجاج وتحركات السلطان وتعددها، وذلك في سياق معاقبته للقبائل المتمردة الرافضة لتأدية الضرائب، ثم هناك دور القوى الأجنبية الأوروبية، فالكوليرا التي ضربت تطوان في 1859 – 1860 (حرب تطوان بين المغرب وإسبانيا) تم إدخالها عن طريق الإسبان اللذين جاؤوا لاحتلال المدينة.

لقد كان المغاربة يعتبرون الكوليرا، كما الطاعون، عقابا من الله، ولذلك كانوا يغلقون عليهم أبواب منازلهم أو يبحثون عن العلاج، ويحكي القناصل عبر مراسلاتهم كيف كان المغاربة يضعون زيت الزيتون على أجسامهم للوقاية من الوباء، وكان البعض يفر إلى الأضرحة أو إلى الجبال البعيدة خوفا من العدوى. هكذا، كلما كان الخوف من المجهول يزداد، يتم الفرار، لكن في فرارهم هذا وإقامتهم بالأضرحة، حيث كان عددهم كبيرا والأمكنة ضيقة الشيء الذي كان يساعد على انتشار الوباء. وعندما

دخلت فرنسا إلى المغرب كان هذا الأخير لا يتوفر إلا على ثلاث ملايين من الساكنة، أي عدد قليل في دولة تأسست منذ 12 قرنا مع الأدارسة (نعني هنا الحقبة الإسلامية من تاريخ المغرب).

لقد كان المغاربة كما رأينا أعلاه يعتقدون أنه لا يمكن الإفلات من الأوبئة لأنها إرادة الله التي لا مفر منها مرتبطة بالشرور المرتكبة، و هي عقلية تختلف عن العقلية الأوروبية التي عرفت تطورا كبيرا نحو العقلانية، هكذا، و عندما حاول الأوربيون فرض الحجر الصحي رفض السلطان سليمان ذلك، و كان الأوروبيون يخشون من ذلك و يرون في العقلية المغربية مناسبة لانتشار الوباء، الذي يهددهم هم كذلك، خاصة تلك الشعائر المتعلقة بالميت، مثل غسل الميت و والوميضة (عشاء الميت)، الشيء الذي اضطر معه الأطباء الفرنسيين إلى توقيف هذه الممارسة. ويحكى أنه ذات يوم ذهب القنصل الفرنسي سوردو لملاقاة السلطان لإخباره بموت أحد الأوروبيين فأجابه السلطان قائلا: **"يمكنك الذهاب أينما شئت، وتختبئ في أي بلد تريد، أو تفر إلى أعلى برج، ستجد الموت طريقها دائما للوصول إليك".** إنه واقع تاريخي، فقد كان السلاطين يرفضون الحجر الصحي، وكانوا أحيانا يتخوفون من أن يكون بوابة مفتوحة للسيطرة الفرنسية على البلاد عن طريق المراقبة الصحية، وقد يئس الأوروبيون من تعاون السلاطين معهم، حيث كان هؤلاء الأخيرين يرون الحجر الصحي كنوع من الاستبداد (المقصود استبداد الكفار)، ويعتبرون أن اتخاذ احتياطات من طرف المسيحيين مجرد تفكير طفولي. وكانت الساكنة نفسها متحفظة ورافضة للحجر الصحي، فالحاج مثلا، الذي كان يقضي سنة خارج بيته، فعندما يعود يفرض عليه الحجر، لكنه كان يرفضه رفضا منهجيا، وكان هؤلاء الحجاج يحملون معهم أثوابا كانت تشكل أعشاشا للميكروبات.

لقد لعب الأطباء خاصة الفرنسيون دورا بارزا في الاستعمار والهيمنة على المغرب، فقد كان الطب سلاحا في يد البلدان الرأسمالية، وتمت أمبرلته لاستعمار البلدان ومنها المغرب. لقد كان ليوطي أول مقيم عام لفرنسا بالمغرب يحب الأطباء كثيرا، فقد كان يقول إن "**الطبيب هو أهم من فرقة عسكرية**".

بالعودة إلى سنة 1792، نجد أن الأوروبيون قد وضعوا مجلسا صحيا في المغرب، وقد كان يقوم بدور دركي يقدم تقارير عن كل ما يدور في البلد.

في بداية الحماية سنة 1912 ،كان المشهد الإيبيديومولوجي يقدم أربعة أنواع من الأوبئة و هي : التيفوس و الطاعون و الجدري و الحمى الراجعة، و قد تزايدت هذه الأوبئة خلال الحرب العالمية الثانية (1939 – 1945)، فخلال الحرب العالمية الثانية قامت فرنسا بإفراغ احتياطي المغرب من القمح من أجل تغذية الحلفاء، و لذلك، ففي سنة 1941 عانى المغرب من المجاعة، و هناك سببان يفسران هذه الوضعية المأساوية، أولها غياب الأمطار رغم صلوات الاستسقاء التي يقوم بها علماء الدين و الأئمة بدون جدوى، و السبب الثاني أن الساكنة كانت جائعة، لقد كان المغرب يعاني من توالي مجاعات في سنوات 1940، 1941، 1942، 1943، 1944، و قد كانت سنوات قاسية بالنسبة للسكان، عرفت أوجها سنة 1945، التي أطلق عليها المغاربة "عام البون". كان النساء ضعاف الجسم وعظامهن بارزة، وقد حكى أحدهم أن الكلاب قد بدأت في أكل أخيه من الأذنين والأنف، وكان بجانبه ولم يستطع طردها نظرا لوهنه وحدة هزاله، لقد كان الناس خائفين ويقفون في صفوف أمام الفران، ويتم توزيع الحريرة بقدر غير كاف، ومن أجل ارتداء الملابس كان المغاربة يضطرون في بعض الأحيان إلى إخراج الجثث من مدافنها للاستيلاء على الكفن، كان الأمر رهيبا حقا، كما يقول أحد الباحثين في تاريخ الحماية.

لقد استطاعت الحماية الفرنسية أن تفرض على المغاربة طب باستور مقابل الطب التقليدي، وتحكي الوقائع الاستعمارية عن حالة ماري فويي، وهي ممرضة فرنسية أطلق اسمها على أحد المستشفيات بالرباط، والتي سقطت صريعة الموت من جراء مرض التيفوس سنة 1913، وقد سقط كذلك العديد من الأطباء من جراء الوباء، مما دفع بالإدارة الاستعمارية إلى اتخاذ إجراءات قاسية منها:

عزل المدينة الأوروبية عن المدينة القديمة عن طريق طوق صحي وفرض التوفر على شهادة المرور للمغاربة المتوجهين إلى الحي الأوروبي. لكن جواز المرور لم يحل المشكل، فقد أصبح جميع المغاربة يستعملونه، الشيء الذي جعل طبيبا فرنسيا يقول بسخرية:

"**أتساءل إن كانت عندي قبيلة اسمها محمد الجيلالي**"، وقد اضطر الفرنسيون إلى استعمال الطابع على كتف العمال الذاهبين إلى المدينة الأوروبية تماما مثل الخرفان.

بعد ذلك، قام الفرنسيون بمنع الوميضة وكذلك منع بيع ملابس الميت، كما كانوا يقومون بحملات لطرد الفقراء خارج المدن، كما كان يحصل في سنوات 1920، 1930 و1940. ومن حيث شكل هذه الحملات الصحية وحسب المؤرخ دانييل ريفي، كانت السلطات الاستعمارية الفرنسية تمارس دكتاتورية صحية حقيقية، بحيث تفرض التلقيح على كل السكان. و لتلقيح المغاربة كانت إدارة الحماية تصل إلى بعض الأزقة و تغلقها من الاتجاهين ثم تقوم بتلقيح الجميع، و عندما كانت السلطات الاستعمارية تجد صعوبة في تجميع الناس ، يذهب الفرنسيون إلى السوق و يغلقون جميع منافذه، ثم يلقحون الجميع، وكانت السلطات الاستعمارية كذلك تقوم بحملات القضاء على الفئران، فكانت الإدارة تقدم مكافآت للمغاربة اللذين

يأتونها بالفئران، لأن هذه الحيوانات تعتبر ناقلة للأوبئة، و مقابل كل فأر تقدم السلطات أربع فرنكات، هكذا انطلق المغاربة في مشاهد سوريالية لصيد الفئران، و كان المغاربة يأتون بالفئران من خارج المدينة(المقصود مدينة الرباط) للحصول على المكافأة أو الزيادة فيها.

تظهر التجربة الاستعمارية أن المغرب عرف خلال المرحلة الاستعمارية صداما بين عقليتين وثقافتين وقيم متباينة، أي نوع من صدام العقليات، فعندما كان الطبيب الفرنسي يقول للمريض المغربي أن العلاج هو استعمال الكينين يجيب هذا الأخير ب "أنا ضريوني جنون" (الجن).

خلاصة القول، فعندنا تجتاح الأوبئة بلدا يعود أهله إلى التاريخ وكيفية التصرف تجاه هذه الأوبئة، فقد ظل الأوروبيون لقرون يتذكرون مرحلة انتشار الطاعون الأسود سنة 1348، الذي قضى على جزء كبير من سكان أوروبا، ولا يخرج المغرب عن هذا الإطار، لكن المغاربة، كما يقول أحد الباحثين في التاريخ الاستعماري رويان بوجمعة، فرغم دخول العديد من التكنولوجيات، فالعقلية المغربية لم تتغير وتكاد لا تختلف عن سابقاتها (انظر استجواب للباحث تحت عنوان "في المغرب السلاطين رفضوا الحجر الصحي"، مجلة "تيل كيل" 8 – 4 – 2020).

3 ـ حمى المستنقعات: الملاريا (حمى الدلاح أو الهندية حسب المغاربة)

تسبب الأمطار الغزيرة أحيانا أمراضا وأوبئة عندما تتكون مستنقعات، التي يكثر فيها الباعوض، فتنتشر حمى المستنقعات. عرف المغرب هذا الوباء، الذي ظل ينتشر إلى حدود 1950، حيث اعتبرت مصالح الصحة للحماية حمى المستنقعات كأخطر مرض في المغرب لأنه الأكثر انتظاما في انتشاره، ثم لا وجود لعلاج له، فقد تسبب في قتل العديد من الجنود والعمال، وفي

كوارث كبيرة مثل ما وقع في منطقة الغرب في سنة 1920، حيث كانت السنة تبدو واعدة من حيث الحصاد، لكن هذا الأخير ترك لحاله لنقص في الأيادي فالكل مات أو أصيب بالمرض، كما قضى المرض على الأطفال بشكل كبير، ومنذ هذا التاريخ أطلق المغاربة على حبة الدواء المسماة لا كينين اسم "الكينة". لقد وصلت الإصابات في بعض دواوير الغرب إلى 85 % وأقلها 10% في الجماعات الفلاحية المحيطة بالقنيطرة (بور ليوطي) وبسبب ذلك قامت السلطات الاستعمارية بمنع المواسم لمدة ست سنوات.

خلال الحرب العالمية الثانية تقلص استيراد الكينين وتوزيعه، فانتشر المرض من جديد في المغرب، خاصة في المغرب الأطلسي، وفي منطقة ولاد عامر ودوار حصين حوالي ستة أشخاص من عشرة أصيبوا بالمرض في بداية الخريف من هذه السنة. ويفسر السكان هذا المرض بالجن الشرير المائي (جنون الما)، ولما لاحظ الناس أن حمى المستنقعات تنتشر في الصيف في نفس الوقت الذي تنضج فيه بعض الفواكه أطلقوا على المرض حمى الدلاح أو حمى الهندية (التين الشوكي)، كما كان "المثقفون" والمؤرخون يخشون الحديث عن ذلك المرض خلال تاريخ المغرب بسبب الخوف من الماء (الخوف من جن الماء.

II - استبداد السلاطين وظلامية الفقهاء واحتكار التجار

وفيما يخص السلاطين، فقد كانوا يغادرون المدن الموبوءة ويدعون أبناءهم إلى مغادرتها فورا بمجرد ما تظهر إصابة واحدة، كما تشهد على ذلك رسالة السلطان أحمد المنصور، الذي كتب إلى ابنه أبو فارس حاكم مراكش يذكره بالاحتياطات اللازم

اتخاذها ضد الطاعون، وفي نفس الوقت يدعوه إلى مغادرة المدينة بمجرد ظهور إصابة واحدة (انظر مقتطفات من الرسالة في مجلة "زمان" العدد 113، أبريل 2020).

و بالعودة إلى الحجر الصحي، فقليلة هي الوثائق التي تثبت وجوده، و في كل الأحوال فهي قليلة جدا إن هي وجدت، و على العكس من هذا ، نجد بعض السلاطين، بل و حتى الفقهاء و علماء الدين دعوا إلى تحريم الحجر الصحي (مثال السلطان سليمان) اعتقادا منهم أن ذلك يعتبر طريقة للهروب من القدر و من تحقيق الإرادة الإلاهية، و قد ساعدت هذه المواقف على تفاقم الخسائر التي تسبب فيها المرض، و كما يقول المثل، فمصائب قوم عند قوم فوائد، فقد كان بعض التجار خاصة الكبار منهم يلجأون إلى المضاربات فيجمعون القمح و المواد الغذائية و يخبئونها لأيام أخرى فيبيعونها بأثمان مرتفعة جدا مما ساهم في إغتناء هؤلاء التجار المنعدمي الضمير، و قد ساهمت هذه الممارسات في تعميم الأزمة رغم أن بعض المناطق في جنوب البلاد كانت أقل إصابة بوباء الطاعون الأسود.

من نتائج الأزمة كذلك كان العديد من التجار الصغار ملزمين بتغيير المهنة والتحول إلى مجرد وسطاء، هذا إذا لم يتعرضوا للبطالة والاندحار كفئة اجتماعية.

فيما يخص تصرف الدولة تجاه الوباء فقد كان رد فعلها خجولا إذا لم يكن منعدما و ذا مفعول ضعيف جدا، وقد ساعد على ذلك ضعف البنيات التحتية والسياسية والمالية المتخلفة للمخزن، والتي كانت هشة جدا، فقد كان الوضع عبارة عن حلقة مفرغة، ذلك أن المصدر الأول للمخزن هو الضرائب التي تتم جبايتها من السكان، وانتشار الوباء يعني فراغ صناديق الدولة، فقد كانت القطاعات الثلاث للأنشطة المدرة للعمل والدخل في عطب، ونعني بذلك الحرف والتجارة والفلاحة، فكل شيء

كان مرتبطا ضمن دائرة مغلقة، فللإبقاء على نشاطه كان الحرفي يحتاج إلى المواد الأولية التي توفرها الفلاحة، كما كان يحتاج إلى التاجر لبيع منتجه، وفي نفس الوقت كان الفلاح في حاجة إلى الحرفي والمهن الصغيرة للحصول على أدوات العمل، كما يحتاج كذلك إلى السلسلة التجارية لبيع منتجه، أما التاجر فقد كان يحتاج إلى منتجات الحرفي والمزارع، وذلك من أجل توفير البضائع التي يمكن أن يبيعها. هكذا، فبمجرد أن تغيب حلقة من السلسلة حتى تسقط الحلقات الأخرى.

لقد كان للطاعون، الذي ضرب المغرب عبر موجات متعددة على امتداد نهاية القرون الوسطى أثرا كبيرا على البلاد حيث تغير وجهها بشكل كبير، فقد عرف البلد تراجعا اقتصاديا وأزمة اجتماعية وسياسية على امتداد قرون، لكن الوباء لا يمكنه أن يفسر وحده تلك الأزمة العميقة، فالمجتمع المغربي كان مجتمعا قبليا ومقسما ولا يعرف الاستقرار، ولا ينحو نحو التقدم المطرد في مجال الفلاحة و الصناعة وغيرها، إضافة إلى النظرة الريبية غير الإيجابية لكل ما هو تقدم، وقد زادت الدولة في تأزيم الأوضاع، لأنها لم تكن تتوفر على توجه اقتصادي أو سياسي واضح، فكانت تخبط خبط عشواء، وترتجل دون أن تكون لها رؤية أو استراتيجية، أي أنها كانت تعمل على إنقاذ ما يمكن إنقاذه و تدبير الحاضر دون رؤية مستقبلية، أي غير قادرة على استثمار مداخيل الجبايات والتجارة، إضافة إلى وجود حالة حرب مستمرة في البلد عبر تمردات و حركات دائمة (صراع بين المخزن و القبائل)، وهذا ما يقدم صورة هامة لإدراك حجم الكارثة التي عاشها المغرب نهاية القرون الوسطى عندما كانت أوروبا قد بدأت تتلمس طريقها للخروج من الأزمة التي تسبب فيها الوباء، وذلك بإيجاد نموذج اقتصادي جديد، الشيء الذي لم يستطعه المغرب فسقط في الدمار الشامل لمدة ثلاثة قرون.

III - الوباء ومعتقدات المغاربة

لقد تولد عن احتكاك المغاربة بالأوبئة والجوائح والكوارث الطبيعية والمجاعات مجموعة من المعتقدات والتصورات أصبحت مكونا أساسيا في المخيال الشعبي المغربي، فنشأت مجموعة من المعتقدات والأساطير والخرافات ما زالت قائمة إلى يومنا هذا، ويظهر ذلك جليا في العديد من الأمثال والتعابير من قبيل "سير الله يعطيك الجايحة" "سير الله يعطيك بوكليب (الكوليرا)". وسواء كانت الكوارث أو الأوبئة أو الجوائح أو التمردات أو الانتفاضات، فقد كان المغاربة يجدون لها دائما تفسيرات دينية وغيبية وخرافية ويعيدونها إلى عدم التشبث بالشعائر الدينية واستبداد الحكام والرشوة. كما كان المغاربة ينظرون إلى العقوبة الإلهية كعقوبة جماعية وعادلة.

عندما يقع الجفاف وتشح الأمطار يخرج المغاربة إلى صلاة الاستسقاء طلبا للمطر، ويرتبط بذلك العديد من الأساطير والخرافات وما يسمى بالكرامات.

لقد كانت البنية الإيديولوجية للمجتمع المغربي متخلفة جدا، وكانت تخترق كل بنيات المجتمع، ولذلك كان الصراع الدائر في المجتمع بين السلاطين والزوايا والمغاربة يخاض من داخل نفس البنية، فالسلاطين يستغلون هذا المنظر الديني السائد، وذلك لتبرير قراراتهم الجائرة بدعوى تجنب غضب السماء الذي لا يرحم، وكمثال على ذلك، السلطان سليمان، الذي قام بمنع المواسم معتبرا إياها بدعة، وبررها بالقول إن الرحمة الإلهية تتوقف عن العباد والسماء تشح والعدو يعيث فسادا والمرض ينتشر.

من جهة أخرى اعتبر شيوخ الزوايا أن هذا المنع لا أساس له دينيا وشرعيا، بينما تعيد الجماهير سبب الأوضاع القائمة إلى استبداد وجور السلاطين، باعتبارها أسبابا للغضب الإلاهي، وبدورهم يعيد السلاطين السبب إلى الشعب.

في منتصف القرن 18، استطاع ممثلو سكان فاس أن يدخلوا في نص وثيقة البيعة للسلطان عبد الله بن اسماعيل المعروف باستبداده وتجاوزاته، فقرة على شكل إنذار، وتقول الفقرة: **"إن الله جعل من الاستبداد سبب تدمير الحقول والماشية والبلاد"**. وبالعودة إلى التاريخ، فبالفعل عرف المغرب في عهد عبدالله بن إسماعيل مجاعات و مجازر و أوبئة.

من الأمثلة التي تظهر جليا معتقدات المغاربة، فهناك ما جاء به المؤرخ الرباطي بوجندار، الذي قال إنه عندما قرئت في مساجد المدينة ويعني الرباط، رسالة السلطان الحسن الأول، يعلن فيها إلغاء المكس (ضريبة كانت لاشعبية)، وكان يعتبر غير شرعي من الناحية الدينية، نزل المطر بسخاء حاملا معه وسخ المكس بعض طول قلق بسبب الجفاف.

لكن نفس السلطان لم ينتظر طويلا ليأخذ ثأره، فقام بتفسير مجاعة 1883 بتمرد السكان. وقام السلطان عبد الرحمان 1822 - 1859 بتحذير الناس قائلا: **" مع انتشار هذه الشرور والتصرفات الرهنية وهذه البدع الدنيئة، فليس غريبا أن يتوقف نزول المطر، وكذلك استقرار الغلاء والعدو الكافر يحتل العديد من تخومنا"**.

عموما، فعند محاولتهم لفهم الكوارث والأوبئة وغيرها، يختلط عند المغاربة ما هو ديني بما هو خرافي، ولذلك يتوجه المغاربة إلى شيوخ الزوايا والأولياء طلبا للسقاء والمطر، وتتحدث العديد من الروايات الشفوية والكتب عما يسمى بالكرامات والمعجزات، ويحكي أحد القناصلة أنه في سنة 1850، في مدينة الرباط، رأى قاضيا يمشي حافيا واضعا القرآن فوق رأسه ليطلب من الله أن ينزل المطر. وكان سكان الشاوية ينظمون ما يسمى بالحيح، وهو عبارة عن دائرة يشكلها الرجال وفي وسطها يقف أحدهم فتنزل عليه الضربات إلى أن يقبض على أحدهم فيأخذ مكانه، كانت هذه اللعبة تعبيرا رمزيا عن عقاب جماعي يستعمل عندما تشح السماء.